

ست زوايا للصلاة

ست زوايا للصلاة

قصص

أميرة بدوي

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة



الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)



دار العين للنشر

شارع سرسق، بناية شارل عون،
درج مار تقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 13-5290، بيروت
Email: info@arabculturefund.org
www.arabculturefund.org

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com
المدير العام: د. فاطمة البودي
الغلاف: عبد الرحمن الصواف
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/٢٠٦٧٥
ISBN: 978 - 977 - 490 - 562 - 9

أُنجزت هذه المجموعة القصصية بالشراكة مع برنامج آفاق.

ست زوايا للصلاة

قصص

أميرة بدوي



AFAC ARAB FUND FOR
ARTS AND CULTURE
الصندوق العربي
للثقافة والفنون





بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

بدوي، أميرة

ست زوايا للصلاة: قصص / أميرة بدوي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٩ ٥٦٢ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣,٠١

رقم الإيداع / ٢٠٦٧٥ / ٢٠١٩

إلى كعبة سيدي علي

انزلْ على الجرح المخصَّب يا ندى
رطبْ مراقَدنا الأليمةَ يا ندى
واذعُ الصَّخور لترحم العظم المهشَّم يا ندى
واتركْ بنا رمقاً هزِيلاً يا ردى

محمد عفيفي مطر

المحتويات

11.....	البُومة
19.....	العُرْسَة
25.....	النَّعْش
33.....	الخِضْر
41.....	البُرْص
49.....	النَّذَاهَة
57.....	القَطُّ
65.....	الدِّيك
73.....	الكَفُّ
81.....	الْغُولَة
87.....	الإِبْرِيْق
93.....	الْوَلِيُّ

البومة

في شرع قطع الطريق، القتل ممنوع في الأشهر الحرم. سيدي عبد الرحمن، رئيس المجلس قضى بذلك، وأمره سيف على رقابنا جميعاً. كل أسبوع ينعقد مجلس قطع الطريق، يجلس سيدنا على دكة في المنتصف، وبالقرب منه المستشارون، بينما يتناثر بقية الناس حوله، يستمعون لنصحه وإرشاده، وينهلون من علمه الواسع. إذا أراد أحدهم أن يكسر رقبة إنسي، أو يسرق أجله، أو روح أحد أبنائه، يقدم طلباً إلى المجلس، ويرفق الأسباب الحقيقية وراء ذلك. الأسباب الحقيقية، لا شيء غيرها؛ لأن سيدنا، سيد العارفين، يستطيع بنظرة أن يفقسه، إن كذب، أو أراد فساداً في الأرض. بعد انقضاء الأيام المباركة يتفضل المجلس بالحكم النهائي، في جلسة الفصل. لكن حسين لم يستطع الانتظار؛ دخل المجلس من الباب الكبير يحمل كفنًا. تعجب الحاضرون من فعلته؛ لم يجزؤ أحد على كسر القواعد، حمل الكفن

يكون في جلسة الفصل وليس قبل ذلك، وليس في الأشهر الحُرْم. دخل حسين بخطوات ثابتة، عيناه على الدكة الكبيرة، لم يأبه لسباب الحاضرين. بصقة في منتصف وجهه أوقفته لثوان، لكنه أكمل الطريق حتى وصل إلى سيدنا، وركع أمامه في خشوع.

"أنت هتكفر؟"

"إيدك أبوسها يا سيدنا، استر علينا، ربنا ما أمرش بالفضيحة".

حسين لم يكن يريد قتل سَنية، أخته التوأم. لكنها وضعت وجهه في الوحل، لم يعد له وجه من الأساس، أكله الناس بأعينهم. أخته الأرملة في عز شبابها، "لهطة قشطة"، رفضت الرجوع إلى بيت أبيها، وقالت إنها سترِّي صغيرتها في بيتها. لم تكتفِ ببيع الخضار والفاكهة على باب بيتها، بل اشترت عربة بحمار، أخذت ثمنها من حسين نفسه، وسرحت على حلّ شعرها، تنادي بصوتها الحلو، فيخرج الرجال قبل النساء، ليزوقوا خضارها المسكّر، الطازج. بالأمس سمع حسين همساً يدور حول أخته، همسة تؤكد إنها امرأة عَزَبَة، كيف يتركها أخوها هكذا، وهمسة تؤكد إنها ابنة ليل، تستقبل الرجال في الظلام، عندما تنام ابنتها ويبدأ نقيق الضفادع، تسكن أعين القمر. اقترب حسين من سيدنا، وبكى بين يديه، يطلب السماح، والتخلّص من هذا الحمل. كيف ينظر الناس في وجهه، كيف يستأمنونه على أبنائهم في المدرسة، لا يريد وصمة العار هذه، يقول لسيدنا إنه سيربي

الصغيرة، لن يجعلها تشعر بالفجعة. "أرجوك يا سيدنا، اقبل الكفن، ربنا ما يرضاش بالفضيحة!".

اجتمع سيدي عبد الرحمن بمستشاريه في غرفة القول، هنا لا آذان، ولا السنة تبوح بسر. قدرة المجلس مربوطة بتنفيذ الأحكام، من يحكم بقبض روح يقبضها بيده، يخنقها أو يذبحها. من يقضي بسرقة بهيمة يفك أحبالها، هذه شريعة المجلس، الكل يعرفها، ولا يشرك بها أحد.

في الغرفة بدأ أحدهم القول بأن الله يغفر الذنوب جميعا، قاطعه آخر: لكنها تغوي الرجال. اقترح ثالث: نزوجها يا سيدنا، وربنا أمر بالستر. واستمرت المداولات ساعة كاملة، قضاها حسين وعيناه في الأرض، لا يستطيع رفع رأسه في المجلس، ولا أحد تفوّه بكلمة معه. أيا كان قرار المجلس لن يعارضه، هناك شيء داخله ينهاه عن قتلها، ربما تكون مظلومة، لكن كيف تكون، وهي امرأة، تجلس وسط السوق بجلباب ملون، لا تعصب رأسها بوشاح أسود، ولا تحجل من عينيها الزرعية، وقوامها الممشوق. لا بد أن أحداً رآها مع رجل، ربما يكون جارها المسن، ينط على السطوح المستو ويتذوّقها كل ليلة. وربما يكون حبيبها الأول الذي طلق زوجته منذ أسبوعين. ظن حسين أن سلفتها وراء تدنيس سمعتها، تهيج الناس عليها؛ وتحاف على زوجها من حلاوتها. الأصوات! الأصوات تصرخ، مرة لها ومرة عليها، ومرة تعيده إلى قاعة الفرن في البيت، حيث لعبا مع إخوتهما البنات. كان يقسم بأنه رجل، لن يهزه شيء، مثلما يقسم الآن، يفلقس فتركب

البنات عليه واحدة تلو الأخرى، وبعد غمزة من سنية لأختها الصغيرة، ترغزه من بطن قدمه، فيطوحهن جميعاً، تخرج سنية لسانها وتقول "يا خرع"، يشتاط منها، يكيد لها مثلما كادت. يخرج إلى الطريق ويحضر صباغ فحم، وعلى الحائط يرسم لعروسها الجميلة ذقناً وشنباً، ويجعل قدميها مشعرتين، تصرخ سنية وتركض وراءه وسط ضحكات البنات، ولا يمضي وقتٌ حتى يتصالحا، ويمرحا تحت النخل وحدائق البرتقال. شيء داخله يدعو للهرب من المجلس، لكن قضي الأمر، غيبها الآن مكشوف داخل جدران هذه الحجرة، إذا قضي بقتلها، فلن يستطيع أحدٌ منع الأمر، إنسياً كان أو جنياً، فقضاء سيدنا نافذ، لن يغيره الهروب، لا يجوز أن يتراجع عن الطلب. إن فعل ذلك سيُخرج سيدنا الفرفر ويفجر رأسه في طرفة عين. ماذا يدور الآن في الغرفة؟ سيدي عبدالرحمن ومستشاروه استمعوا إلى رأي علام القاضي بموتها، فلا حرمة تفوق الفضيحة، ورتل بعد ذلك قائلاً "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ"، لم يعلن المجلس اسم علام عندما قضاوا في طلب حسين. سمع الخبر ولم يقل شيئاً، حبّ على يدهم في صمتٍ وخرج مبلولاً إلى بيته، وأقام الليل إلى طلوع الفجر.

مع أول شعاع للشمس يحط في فسحتها استيقظت سنية، فطّرت الحمار وصغيرتها. ارتدت المحروسة ملابس المدرسة وسبقت أمها. حرّمت سنية

وسطها، وضعت الأقفاص على العربة، شدت لجام الحمار ونادت طول الطريق "لاتين يا عنب، ولا بلح زيك"، الخضار الطازجة". ترمي السلام على طوب الأرض، يحبها الأطفال ويركبون معها، تعطيهم البلح والعنب من العدّيات الطازجة، وتوصيهم على صغيرتها. تصل إلى المعدة. يساعدها المراكبي في ترويض حمارها الخائف، ويتناولان الإفطار معاً. في السوق فرشت زرعها، على مرأى من علام، الذي انتظرها إلى أن فرغت وعادت إلى بيتها مع غروب الشمس. كان معها عندما اشترت خضاراً جديداً من وكالة الخضار والفاكهة من البلدة المجاورة، كان من الممكن أن ينقّص عليها في الطريق بين البلدين، لكن دائماً يظهر شخص يفسد خطته. في المرة الأخيرة كانت الصغيرة معها، وظلتا تغنيان طوال الطريق، وعلام يغني في الخلف معها.

بعد نصف الليل نطّ بيتها، كان يتكون من طابقين، وفسحة واسعة في الطابق الثاني، تضع فيها سنية قصاري الورد والصبار. في الطابق الأول غرفتان، غرفة لها وغرفة لصغيرتها. توجّه علام إلى غرفتها، وكأنه نط هذا البيت من قبل، وعاش فيه زمناً. كان الباب موارباً، وسنية ترتدي قميصاً أسود، طويلاً يشف بياضها، تمسك جلباب رَجُلها الميت وتشمه، تهمس إليه "اوعى كدة، زعلانة منك"، يسبح علام تماماً وهي تهمس بنفس دافئ "زعلانة منك"، كاد أن يسقط السكين. أراد أن يراضيها ويمسح دمعها. وسنية تقول لزوجها إنها على العهد، تكرمش جلبابه وتضعه أسفلها، تقبله، وتتلوى فوقه بدلال، وعلام يشعر بنار في جسده، ودم ساخن يفرد أعضائه.

ينقض عليها، يسقط السكين عندما يلامسها، يضع كفه على فمها، يمسك جلباب زوجها ويخنقها، تعافر. تدير وجهها إليه، بنظرة من عينيها ترجوه ألا يفعل، يغمض عينيه ويلف الجلباب على رقبتها حتى تخرج روحها ويسكن جسدها الفائر.

لم يذهب علام إلى دوار سيدنا، فضّل أن يصعد الجبل، ويجلس تحت القمر المكتمل. القمر سيء، كسلان، لا يخيف الذئب والعقارب، لا يشعر بالخبية أو المبالاة تجاه شيء. مشى علام مرتحياً، ينظر إليه مزدرياً؛ لماذا خلق الله القمر! جلس بعيداً عن الغرزة الصغيرة التابعة للمجلس، لا يريد أن يرى أحداً، دائماً يجلس هنا وحيداً، يدخل المعسل في خشوع. في هذه اللحظة احمرّ القمر وكشف عن وجهه الآخر؛ نار تحرق من ينظر إليها، وعلام ينظر إلى ناره المشتعلة في الأرض، يرى أعيناً واسعة، مدورة، تبخلق فيه، كأنها تريد أن تقول شيئاً، تريد أن تعريه أمام نفسه. لا يعرف ماذا يفعل الآن! ماذا سيفعل سيدنا إن علم بما حدث، سيحمل العار ويورثه لأولاده، يفقد بيته ونظرة الناس إليه. ينظر إلى النار وإلى عقرب يريد أن يلسعه، يغرس فيه سكيناً، ويقربه من ألسنة اللهب، فتأكله، وتأكل الأعين التي كانت تحمق. يقرر الرجوع إلى بيت سنية، ربما يصلح خطاه. على الفور هرول إلى بيتها، ونظّه مرة ثانية. كانت نائمة جوار صغيرتها، ربما رأت الصغيرة كابوساً مخيفاً جعلها تصرخ، فلم تهدأ إلى في حضن أمها، وربما أرادت الأم وداعها. انتظرها علام على السلم حتى قامت، اختبأ في الطابق الثاني عندما رآها تتجه إلى الفسحة، تقف في الشرفة وتشاهد القمر الأحمر، وجواره نقطة برتقالية تلمع بشدة، تشد روحها عالياً، ترتفع بها قبل موتها، فلم

تشعر بظل علام خلفها، عندما تسلل وقتلها للمرة الثانية.

احتضنها علام حتى لامس جسدها الأرض، بكى في حضنها، ارتجف؛ لم تستحق الموت. حاول أن يغلق عينيها ويتلو القرآن على روحها، لكنها رفضت. اتسعت عيناها عن آخرها، اعتقد علام أنها ترفض الموت، تقاوم لمرة واحدة، لم يُرد للأرض أن تنهش لحمها، حاول إنعاشها، قُرب شفتيه من شفتيها وقبّلها، نفخ في فمها، وضغط على نهدية، لكنها لا تعود. أمرها عجيب. حملها على ظهره، وقرر الصعود مرة أخرى إلى الجبل، وكان يبكي طوال الطريق. كل ما يشغله الآن أن يدفنها، ويضمن لها حسن الخاتمة. وصل إلى مجلسه بالقرب من العقرب، حافظ على جسدها دافئاً، غرس رأسه في الرمل، ثم قام وصلى ودعا الله أن تصحو. بكى في السجود كثيراً، وسنية لا تريد القيامة، وفي الصلاة أمره الوحي بتركها. ترك الصلاة وقبل رأس سنية ويدها. أمسك السكين والتهم العقرب. قطع جسدها إلى أربع قطع، وضع كل جزء في مكان بالجبل. ذهب إلى الغرزة ليغتسل، وصلى صلاة الرجوع، قرأ ما تيسر على ماء الغسل. أخذ المياه إلى غرفة نظيفة. تطهر من الذنوب التي اقترفها، ربما يستجيب الله وتنب في جسدها روح. في الصلاة بكى كما لم يبك قاطع طرق. تذكر كل روح قطفها، كل بيت نط، وامرأة. لم يفرغ من الصلاة حتى آتاه صوتها، صوت اشتعال الروح في الجسد؛ عندما قامت سنية، على غصن شجرة، أبصرت العالم بعينيها الواسعتين، لكنها لم تكن رحيمة، كان في صدرها نار، ومن يومها.. تلبد وراءه في كل شارع، تطارده، وتهنّد بصوتها الباكي.

العُرْسَة

الغرباء، يوم السبت، قليلو البخت. بخطوة واحدة على أعتاب البلدة يعرفون أن النور قد حل؛ غيطان غلة، قرص شمس، فطير مشلتت، والكحل ممزوج بالفلفل والزيتون. "بركاتك يا سيدي خالد". البلدة بأكملها تدق الأهوان، والغرباء يصطفون على جفنها في شارع طويل يصل إلى مقام الشيخ ويلتف حول الجبانة. يعرضون الغوايش والحناطير البلاستيكية، الحمص والحلاوة والطراير. يصطفون كغيرهم من أبناء البلدة بالأكواز الملونة أمام أواني النابت الكبيرة، يشربون الشاي الأحمر وسط الذاكرين والزوار. وفي السُرَادِقَات يعلقون فروع اللؤلؤ، يلمعون البنادق والأباريق، المراجيح تهتز بخفة مع خصور النساء في البيوت، وفي البيت المطل على شجرة الجميز، تصفق البنات لحميدة، البهية، وهي ترقص على أطراف أصابعها، مع نقرة الطبلية المشدودة على النار. إشارب من الحرير يطوق

خصرها، وقرصات في ركبته جعلت أمها تتأمل جمالها من بعيد، بينما الجدة تنهر حفيدتها، لتمنع نظرات البنات عن جسدها، صدرها الفائر وقدميها الشهييتين. "الصلاة على الزين".

دخلت حميدة غرفتها، قفلت الشبابيك والستائر، ناولتها أمها طبقاً مملوء بتراب الموقد، مكحلة صغيرة وريشة حمامة. في البداية كانت خائفة، مثل كل مرة، تأففت. قالت: "لماذا ينبت الشعر هنا؟". تستغفر ربها. تتذكر كلمات أمها: "مع أول شعرة يسير النمل تحت جلدك، ولن تشعري بشيء". تتشجع. تنتزع شعيراتها السوداء، ثم تدهن الكريم. تقف أمام المرأة عارية، تمسك الريشة وتمررها على شفتيها، تضعها في المكحلة، تلاحظ حلاوة رقبته الطويلة، حلمتيها البنيتين، فرجها، وساقها البيضاءوين. أشبعت عينيها بجسدها وأخرجت قميص نوم من كرتونة تحت السرير. كان أبيض، وكانت عذراء. صوت الذاكرين يطوف حول البيت، وصوت أمها أشاط أذنيها؛ على الحلوة أن تذهب إلى شادر الذكر لتقدم النذر السنوي. ارتدت ملابسها، خرجت تحمل الشاي والسكر، وكوز بلاستيكي أزرق، ومشت جوار جدتها، وسط الغرباء والمولد.

ضجيج الشارع الترابي، وظل كبير يتخطى السُرَادِقَات والفِرَشَات، ظل عرسة، يأكل السيارات والحناطير البلاستيكية، يشم أكواز البطاطا المشوية، يملس على تلال الحمص والحلاوة، بأذن عريضة تلتقط خطوات حميدة، ومخالب مدببة تتبعها، تترقبها وهي تدخل مقام سيدي خالد. أعين

صغيرة سوداء وسط الذاكرين ترصدها بالكوز الأزرق الممتلئ بالنابت،
تقترب منها وتمص الهواء من حلقها، فتقع على الأرض وسط الضجيج
والذكر، وصراخ جدتها، وحبات النابت المختلطة بالطين. تجزع الأم لما
تراها برمش منحول، وعين ضاع كحلها. ذراعاها متدليان، ورأسها نائمة
في أحضان شاب يحملها، وفي الخلف الشبان والنساء يشيعونها، وظل
العُرْسَة يحوم حولهم.

سرير من الصفيح تمتد أعلاه حميدة، جسدها شاحب ومبقع، آثار حبل
على عنقها، عروق زرقاء نافرة من جفنها وخربشات على ظهر يدها. أمام
عينها الشاردين مرآة ملصوقة بالجرائد، ودولاب يحمل أوزاراً من الكراتين
والخزف، حيطان الغرفة زرقاء ملطخة بالناموس، وعروق السقف كافور
أبيض. الأم تطل عليها كل حين، بطرف ملعقة تبلل شفيتها بالماء والسكر.
والليل على وسادتها، رضيع لا يشبع، بأذنين مشمعتين وعينين مطموستين.
حميدة ترقد في الزرقة. لا تستطيع أن تهز طولها، لا تحرك يداً أو ساقياً. ترى
نفسها في المرآة عارية رغم الجرائد، روح خفيفة تلبسها وتعدو داخلها،
فتعفر صدرها بالغبار وتسكن ذرات التراب حلقها. تريد أن ترشف الماء،
تتعرق، جسدها يبتل. تشعر بأنفاس دافئة على وجهها وشفيتها، صوت
يأمرها أن تفتح ساقها، قرصة في حلمتها تجعلها تنتصبان. ينخسها شيء،
يوجعها، تصرخ، تريد أن تصرخ، تدخل أمها لتطمئن عليها فتجدها مبتلة،
ساقها منفرجين وبقعة دم أسفلها. تضرب الأم صدرها. صوت التعديد

طغي على الذكر، التفت العائلة حول حميدة، اكتفى الأب بنظرة جامدة إلى بقعة الدم، وحميدة ترشف الماء. ترقبها جدتها "عيني عليك باردة"، والعين فلقت الحجر، العين عنيدة.

في الصباح، اشترت الأم الشابة والفاسوخ، دخلت على حميدة مع الجدة وجارة عجوز، جلسن على الأرض حول قصعة من نحاس، استلقت حميدة في حجر أمها وظل العرسة في المرأة. قامت العجوز برقيتها فانفجرت الأشداق. صنعت العجوز عروسًا من ورق، وبإبرة منجد نخستها "من عيون الأهل والناس"، عيون المولد والأغراب، "ومن كل عين شافتك ولم تصل على النبي". لم تترك الجدة مكانًا في العروس دون نخسة، وعلى نار القصعة أشعلت الشابة والفاسوخ، ورمت العروس وهي تتمتم بالأدعية. أعين الأم والجدة لا تفارقان العروس المشتعلة وهي تلتف حول الشابة والفاسوخ، تتكور ويدوب رفاتهما على هيئة عين. تصعد روحها مع الأبخرة، والأم لا تطيق الانتظار، والعجوزان تقرفصان حول القصعة بجلايب سوداء سفرتها من الحرير اللامع. وأخيرًا تكشف الجدة عن ساق حميدة، بينما تخرج العجوز الشابة والفاسوخ التي بدت مثل بالون مصفود، مثل عين سوداء لا تزال تحرق، ويلمع بؤبؤها. تدهسها حميدة بكعبها، وتدغدغها الأم بغل ثم تلم الرفات في سرّة سوداء، تعطيها لصغيرها ليرميها في المولد، وتأمّره ألا يكلم إنسيًا أو جنيا في الطريق، أو في المولد، قبل أن يتخلص منها.

مشى الصبي في المولد. الناس يطوحون الذكر للعابرين، يؤنسون الأموات

والجديان على أسوار الجبابة. نساء يشترين الحلي لبناتهن، وطراير تزين رؤوس الأطفال والشيخوخ، وبندقية تبحث عن قناص. الصبي الذي حمل الأمانة يجيد النِشَان، يسير بخطى سريعة، يبحث عن مفترق طرق يبتلع السرة السوداء. الصبي التزم بالعهد ولم يكلم إنسياً ولا جنياً، وكلم تلك العجوز.

كانت تتعقب سُرَّته. تسير وسط الجموع بعباءة سوداء، وحلق في أنفها. رآته عندما أسقط السرة بين فكي ظل العرسة الوخيم، ومشى متباطئاً جوار أتلال الحمص والحلاوة، وانتظرت الصبي. اقتنص صورة من صاحب النشان، وعاد باهتاً إلى البيت، والعجوز دَوَّاة بدوية تتطوح مع صوت الشيخ ياسين التهامي:

"قَوْلِ الْمُبَشِّرِ بعد اليأس بالفرج
لك البشارةُ فاخلَعْ ما عليك.

حميدة ما زالت شاردة، والنسوان يجلسن على حصير أمام البيت مع أبيها. الدَّوَّاة تتعكز على الصبي، رأتها النسوة من بعيد فعرفن أنها البشارة، قالت: "بنت بنوت والدود سكنها". الأب تورد لما سمع أول الخبر، والدَّوَّاة تعرف الطريق لغرفة الصبية. أجلستها على الأرض في وضع القرفصاء وقالت إن الأرض أمنا. كشفت رأسها، ثم ملّست أسفل ظهرها إلى عنقها، ومن صدرها إلى رأسها. اقتلعت شعرة سوداء من شعر حميدة، طقطقت

كالملح. شدت أذنيها، وأمرت الدود أن يخرج من فمها وأنفها، فسال في كفيها، وحميدة.. حميدة تحسج صوتها واحتقن وجهها، ضربتها الدوادة على ظهرها، فقفزت عرسة بدينة من فمها وهربت بعيداً. ظل العرسة على الجدران سرق أعين النسوة لوهلة، ولما التفتن إلى حميدة وجدنها تزبل في غمضة عين. صار لحمها الشهى عظماً، وشعرها الطويل تساقط، شاب سواده، وانفضّ المولد..

النَّعْش

في عز الصيف. انطفأت نقرة الظهيرة على خرطوم جدتنا، وجلسنا أمام البيوت على حصائر من البلاستيك، نشرب الشاي؛ عندما جاؤوا زمرًا، أرجلهم أعرض من الحطب، وفوق رؤوسهم البُوم. بدوا كوحوش لها رأسين، تمشي على أربع، تعفر الهواء وتحيل الزهور ترابًا. التقطنا الفؤوس والشوم بينما حمل الأطفال المناقر. لم يتزحزح أحدٌ منا. نراقب الطريق وأعيننا في نصف رأسنا. كلما اقتربوا تنفلت - من أيدينا - الأسلحة، وتنبهنا النساء - من خلفنا - أنهم بشر. رأيناهم مرتعشين، أنفاسهم متقطعة وملابسهم مغبرة. ضَيَّقْنَاهم في المندرة الكبيرة، وسقَعْنَاهم ماء المِغِين. وعرفنا أن قريتنا هي الوحيدة الباقية، وهي الملاذ الأخير. قالوا لنا إن هناك وحشًا حط على بلادهم. سلعوة، تزحف فتطير التراب من تحتها، وتدخل البيوت والقبور. قالت امرأة: إنها ليست سلعوة، بل نجمًا سقط من السماء، داخله وحش برأس طويل، يمسك سوطًا ويضربه في الطين،

فيسود الأرض ويجلد ظهور الرجال. البنات قالت إنها أمتا الغولة والنساء قالت إنها أم قويق؛ نسجت من الأرض سحابة صفراء لتختبئ خلفها، وعندما يأتي الليل تدخل البيوت وتحنّ كل من فيها. لكن الرجال قالوا بحكمة "ربما يكون زلزالاً هز الأرض وابتلع البيوت ومن يعمرونها"، لم ير الناجون شيئاً والذين رأوا لم ينجوا. تضاربت الأقوال، وبتنا ننتظر المجهول القادم.

ثلاث ليال ونحن نستقبل الوافدين من البلاد البعيدة. لم تتسع لهم المندرة ودوّار المناسبات، فأقمنا سرادقاً كبيراً وسقفناه بالجريد والقش، ونشرنا فوقه الطين وأقراص الجلة. ولما زادت أعداد الناس، بات كل فرد يصطفي منهم من يصلح للأخوة، فيتقاسم الدار والأرض. بعض الوافدين فضّلوا الرحيل إلى بلاد أخرى وراء النهر. وفي اليوم السابع استقرت الأمور، ولم نستقبل وفوداً جديدة. ولم يغادر البلدة أحد من أهلها. خرجنا جميعاً إلى الأرض، نسملها ونعزقها وننقر غيطان ذرة جديدة. نثرت النساء بيوت الملوخية، وزرعن الفاصوليا وشتائل الكرنب. تبادل الأطفال حكاياتهم عن المخلوق الغريب. كان الجميع يجلس أمام السرادق الكبير، يشربون الشاي، عندما تطل برأسه للمرة الأولى من فوق أول بيوت البلدة. كان ثعباناً عملاقاً، بزببتين على جبهته. شجاعاً، ترك الناس يهجون بيوتهم ثم التف حولها وابتلعها كاملة، ونزل إلى الأرض في سلام. لم نر أصحاب البيوت ثانية، استمروا في الهرب وقفروا في النهر، مع البهائم التي هاجت

وهدمت جدران المرباط. وفي المسجد، ارتفع صوت المؤذن ليجمع الناس في الجرن الكبير، فهرع الجميع وبأيديهم الفؤوس والسكاكين. لا يعرفون كيف النجاة. الشباب يقترحون المواجهة، والشيخ يفضلون الهرب. اقترح أحد الشباب حفر خندق عميق، يحميهم من شر هذا الثعبان، هنا تدخلت. اقترحت أن نصب فخاً، نختار الأقوياء ونسلحهم بالبنادق والفرد، ويلبسون في أبراج الحمام، وما إن يظهر حتى يندقونه في رأسه، ونهني هذه البلوى. على الفور تطوع تسعة رجال غيري، وسهرنا طوال الليل نخطط ونراقب الطريق.

في الصباح تسللنا وبنادقنا فوق أكتافنا. كنا حذرين. بالكاد نلمس الأرض. لكنها اهتزت فجأة، وسمعت دعوات تعلق من كل مكان وقرآنًا يتلى عندما خرج الثعبان ولا مس السماء. لم أستطع النظر في عينيه طويلاً، كانا وحشيتين، وفيهما مقبرة كبيرة. نفخ الثعبان في البيوت والأبراج فانهدمت. كنت ألهث، ولا أرى من السماء سوي زبيبتين، جسدي مغروس في الأرض والتراب ينهال من فوق، لا أستطيع السعال. خشيت أن أبصق روحي، لو جاءني ملك الموت الآن، لو أتاها بورقة من الجنة... شعرت بنمل يأكلني، كنت وحيداً، أسمع ضوضاء الأمس في رأسي، وصلوات تأتي من بطن الأرض، ويد تنبش التراب من فوق، من ربي؟ ما ديني؟ ومن النبي الشافع؟ كان قوياً، انتشلني من الأرض ورفعني على كتفه. غسّلتني بالماء البارد. اسمه سيّد، رفاعي جاء من أرض بعيدة، على حس هذا الثعبان، وصار أملنا الوحيد في الخلاص.

عرفت كرامات سيّد ومناجاته للثعابين والأولياء. كان صغيراً عندما رأى كبشاً يطارده، يسير خلفه في الطرقات، بين الأشجار. وفي العتمة، اقترب منه وتمسح ببنطاله، ثم دعاه إلى مقام أحد الأولياء. كان يعرف هذه الأصوات، يسمّعها دائماً عندما يقترب من الأرض، ويخلد إلى النوم. لم يشعر بجسده عندما تمايل معها، رأى أناساً من نور يتوسطون حلقة من العارفين، ينشدون، يصفقون، يرقصون. حتى أتاه أحدهم، ولقنه العهد في حضرتهم. على مر السنوات، حوى ثعابين كثيرة، ثعابين بثلاثة رؤوس، وثعبان برأس قطعة، وثعبان خُتم على جلده اسم الله، لكنه لم ير ثعباناً عظيماً كهذا. يخنق الأرواح وينفخ في الأبراج ويتلعب البيوت والقبور. كنا نسير في البلدة على مرأى من الناس. لم يسألني أحد منهم عن الباقيين؛ عرفوا وحدهم أنني الناجي. مشوا خلفنا إلى الجرن الكبير، وبأمر من الرفاعي تسلقت نخلة، وأذنت في الناس: الله أكبر الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، ردّد سيد الأذان من بعدي، أشهد أن محمداً رسول الله. أتت الناس من كل صوب، ترتص للصلاة، حي على الفلاح، والفلاح في صلاة سيد. نزلت من النخلة ووقفت في الصف الثالث، كبر سيد ثم أمسك فأساً وضرب الأرض ثلاثاً. كانت عنيدة، لم تنصنع ولم يخرج منها نور. بدأ في التمايل فتمايلنا في صفوفنا. نفخ في ناي مصنوع من البوص. فأمنا وراءه. كان صوته يعلو فوق الريح، يجذب السحالي والثعابين الوليدة إلى أوعية الفخار، في دائرة كان مركزها. ركع ثم سجد ثم نفخ في تراب الأرض، فعلنا جميعاً المثل، ولم يرفع أحدنا عين عندما انقضّ الثعبان والتهم رأس سيّد، وظل

جسده واقفًا يتمايل قبل أن يهوى. هنا عدونا هارين وراء النخيل، ورأينا الثعبان يعود برأسه الكبير إلى تلك البقعة البعيدة.

لم تشرق الشمس منذ التهام رأس سيّد. تصلي الأرض والنساء من أجل شعلة نار في يد ليلي. تنير الطّاقات والجدران، وتغني مع النساء في حضرة أزواجهن، تهتز مع خصور العذارى وهن يملأن الأزيار. كنا نستمع إلى صوت ليلي ونتعسّس الجدران. لم يهرب من الرجال أحد، رغم السواد الذي عمّ رؤوسنا، وجعل خوفنا من الثعبان يمنعنا عن قضاء حوائجنا.

ليلي، ابنة أبي، تحب الجلوس على الجرف، في طفولتي أنتظرها مع الناي، يغنيان ويتبادلان الحكايات، ويطلق الليل الطبول. أما الآن بعدما فقدت الناي أجلس منهزمًا، أراها تأتي بطبق من الحساء، ومشنة فوق رأسها تحوي الخبز والبصل. تحاول الابتسام رغم ذلك. نجلس على الجرف، وأستمع لحكاياتها عن نساء البلدة، ومحاولاتهن لاستعادة رجالهن. نورا، ابنة العم، فقدت زوجها هناك، لكنها لا تزال تسقيه من مائها، وتشعل الشموع لهما. تقول "كان يحب الشموع وقمصان النوم القصيرة". يحمر خديّ ليلي لكنها تتابع الحكايات، في الطريق إلى البيت، والليل كان صامتًا. رأيتني عند نخلة الصلاة، ورأيت ليلي مع حشد من النساء، عندما خرج الثعبان برأسه الكبير. حوطناه بخوف ثم ركعنا، دار بين الصفوف، شم روائحنا، وكلما فارق صفًّا حمد المصلون ربهم وكبروا، بينما تخفق قلوب الآخرين. من سيختار الثعبان. لا أحد يعلم.

"على أحد أن يموت"

صحت على صوت جدي، وصراخ النساء وهلع الرجال، الثعبان يريد قرباناً. من منا سيموت قريباً؟ البلدة كلها رأت نفس الرؤيا. انتشر الفزع بين الجميع، وخاصة بين النساء والشيخوخ، ربع سكان البلدة من المعمرين. نسينا الموت ونسينا مكان القبور. بركة العمر والقلوب الطيبة. لم يمت أحد منذ عشر سنوات. عشرين، ثلاثين. خلاص! خلاوص. خرج الثعبان علينا ورأيناه جميعاً في الرؤيا. نراقب المسنين، نتأمل تجاعيدهم الكثيرة وخربشات الزمن؛ خطوطاً في جبين جدي، طرقاً كثيرة، متاهات أضيع فيها. أحياناً أتمنى أن يموت العجزة والمسنين؛ يجلسون على المصاطب ينتقدون المارة، ويتناثرون في الطرقات، يلعبون السيجة، لا يفلحون الأرض ولا تأخذهم المدينة. عرفت أن شباب البلدة تراودهم مشاعري أيضاً، نشفق على المرضى والمجاذيب، ولا نتمنى الموت لأنفسنا. لم نر الحياة على وجهها الحقيقي بعد، لم نلبد في شقوقها ولم يحمل أحد منا آخر عنقوده. فماذا ينتظرون؟ لماذا لا يتركون أرواحهم تصعد إلى السماء، ويهدون البلدة طريق النجاة؟ لم يتمن أحدنا أن يخلد في الدنيا، نريد أن نعيش نصف ما عاشوه فقط. كل ساعة كنا نعددهم، مرة واثنين وثلاث مرات فنجدهم على حالهم، لم ينقصوا واحداً. ومع كل سعة تخرج من صدر جدي أمل خيراً، ومع كل سعة تخرج من صدر أجدادهم يأملون خيراً. بدأت شهوة الدم تسكن صدور الشباب، لماذا ينتظرون؟ إذا لم يستسلموا لمصيرهم سينفذون

إرادة الله بهم، سيقتلون أحدًا. أرى ظلالهم تمسك بالسكاكين والخناجر أسفل الأشجار. أرى أعينهم تشتعل بالدم، أنضم إليهم، نتربص جميعًا خلف الأشجار والعشش، أحضر أحدهم شوالاً من الخيش، وعقدنا النية على قتل أحدهم. من يمر الآن منهم سيكون القربان، سنقيم له مولدًا كل عام، ونعده من أولياء الله الصالحين. سمعنا جميعًا صرخة، صرخات تأتي من أهل البلدة، فعرفنا أن أحدًا غادر الحياة أخيرًا.

كان وجهها كالثلج، تستلقي بجسدها الخشبي على أريكة جدي، وأربعة من النساء يغسلونها بباء الورد. ويمشطن خصلات شعرها في دلال. ليلى الجميلة، طفولتي التي أعرفها، غنوة الجرف والناي، صوت الليل في صدري، امرأة تحشي فمها بمنديل أبيض، ويمزموها من وسطها، ومن رجليها، ومن صدرها. كلما نظرت إليها اختنقت. التراب يتسرب إلى أنفي وفمي، أسعل، أبكي وأنا أحمل نعشها، والرجال من خلفي يحملون شعلات النار، والنساء تشق صدورهن ليخجل ملاك الموت. وصلنا إلى نخلة الصلاة، أمسكت فأسًا وضربت الأرض ثلاثًا، ووضعت ليلى أمامي، أقمت صلاة الجنائز. لم أرفع رأسي عندما ظهر الثعبان في التكبيرة الثالثة، ونزل بها أسفل الأرض. احتضن ليلى الجميلة وأكل لحمها. سمعت صرختها قبل أن تغيب للأبد. لم يخرج الثعبان بعدها، كلما جاع ألقينا في بطن الأرض ميتًا جديدًا.

صرنا ننجب الأطفال من أجل ذلك.

الخضر

يجدل الحبال كل عشية ويحرس قضبان القطار. عشرون عاماً يقرص بين الحبال والمقاطف، يكتفها، يلاعبها، ويغير من صورتها. من ليف نخلة عالية إلى خلخال في قدم بهيمة، ومقطف يسبح الأرض ويحش ثمرات الكرب. يقطف قرون الفول والفاصوليا أو يصنع من سباطة النخل مقشة. في ورديته يمر القطار ثلاثاً. المرة الأخيرة عادة توقف أعواد الذرة من غفوتها، وتهيج صراير الحقول والثعالب، فيشعل النار في القوالب المروسة على شكل بيت في منتصف الموقد، ويزيد وهيجه بغلافتين، وأقصاب الأشجار التي قلمتها امرأته الهزيلة، التي تأتي بالغداء كل مغربية، مع طشت من الماء، تملؤه ابنتها انتصار من ماء معين، لتكبه في الزير.

لا يعرف لم تحب امرأته تقليم الأغصان، وتحزيمها بأوراق الموز المبلولة من ماء الترعة، رغم بخس الثمن. الناس تفضل القوالب وشكائر الفحم.

ربما عليها الاكتفاء ببيع البلح التي تجلبه من الصعيد قبل رمضان، وخبز الفائش والعيش الشمسي لأهل البلدة. لكنها لا تَبُلُّ ريقه أبداً عندما يطلب منها ذلك، وحجتها شوار البنات: انتصار، وفاطمة. وسمر.

على مقربة من النهر، داخل كشك من الطوب الأحمر، محرّه بكفٍّ، ولطس ألواح السقف وهذبها، ومع ذلك فهي مليئة بالهباب والناموس، يجلس شبُل على شوال يجدل الحبال. قبل الثالثة يخرج من الكشك، يتجول بين الأشجار والمشاتل المتناثرة حول المزلقان. يتفقد بضوء الكشاف أشجار النخيل الملوكي وعمة القاضي وينتظر تسبيح الكروان، وتبدأ مواويل الضفادع، تنادي على نبيها الخضر، وتبتهل مع أذان الفجر حتى يعود إلى الأرض التي خرج منها. وقد تأتي نساء القرية وبناتها لتلحس جلد الضفادع فتفك عقدة اللسان وتعلو الزغاريد بالفرح والسحر. أما الأطفال فيرون إذا ما لمسوا جلدها مقاعدهم في الجنة أو في النار.

مع غروب الشمس تبدأ ورديته، بنسمة خفيفة تخبره بموعد مرور القطار. فيغلق المزلقان ويتفقد وجوه المسافرين، يلوح لهم فيردون التحية. الوجوه تتكرر مع كل قطار، كأنها في سفر دائم، سواحون في الأرض، لا محطة في انتظارهم. في كل مرة يمر فيها القطار يبحث عن النافذة التي يطل منها. عندما يهبط الليل، قبل عودة القطار، يتجول بين المشاتل، ليصل إلى عمودي الإنارة الوحيدين إلى البلدة. لا يهتم أحد بغرس العمدان هنا، ولا يحتاج الضوء النطاطون وأصحاب الكيف والراغبون في الخلفة؛ الذين

يلقون نساءهم أمام القطارات، فالموت حين يفزع أحداً يقطع الخلفة أو يمد حبالها، والله في أمره شؤون. لم يصادف في الطريق أحداً، ولم يسمع صوتاً يعلو على صوت الضفادع. إلا امرأة تلهث بين الحقول، وتصرخ بشدة كل حين. حاول أن يتتبع الصوت، غرز بين الحقول المروية، إلى أن وصل عند خيط دم يبقع عيدان الذرة. سمع بعدها صرخ طفل، ووجد لفة من القماش مليئة بالدم، وسكيناً صغيراً. ثم جاء القطار. سمع البوق الغاضب فجرى عائداً إلى الكشك. ركض بين شتلات الصبار، تعثر بها، تمزق جلبابه القصير. وصل أخيراً وأغلق المزلقان. ومن أمام الكشك رأى ظل امرأة تلقي بوليدها على القضبان. صرخت بعدها، وصرخ، وصرخ القطار أيضاً قبل أن يمضي في طريقه ويحل السكون. تسمر للحظات. جلس على الدكة متعباً. مشى بخطى مرتعشة نحو القضبان. كانت صلبة وساخنة، بلا بقع. خمن أن المرأة لم تلق بوليدها - رغم عارها - ربما منعته أمومتها.

نظف الكشك من الأحبال والمقاطف. نفص التراب عن سريره، طقطق الناموس بالمضرب، استلقى على الفراش. شرد في ألواح السقف ولم يلاحظ بقع الدم على جلده المخضر. انزلت قطرة إلى أنفه فاستنشقه وكاد أن يتلعها. قفز على الأرض منتفضاً. نفّ وبصق وتمضمض بهاء الزير. غسل وجهه وذراعيه ثم التقط المطوة والكشاف وهرع إلى الخارج. أين الدم، من أين جاء، أضواء بالكشاف شرق الكشك وغربه، وغدا يفتش في كل مكان،

إلى أن وجد على مقربة من النافذة ذراعاً مبتورة، كانت لا تزال ممخضة بدم الخلاص. ارتعش عندما أمسكها، ووضعها في شوال من الخيش. سار بظهر محني يجمع أشلاء الوليد، يشم الأرض ويتلو الأذكار بصوت مرتعش. وجد حبل سرة مربوط بفتيل من الصوف. وقرر الذهاب إلى النهر.

حفر الأرض بالكريك، بذراعين واهنتين، لا تقويان على حمل رفات النهر. كان يرص أجزاء الوليد برفق، بينما تغسلها قطرات العرق والصفادع تشيعها بالتراتيل. أهال التراب عليه. من سيحمل دم الوليد، أمام الله، وأمام الحكومة؟ حمد الليل في سره كثيرًا، ولم ير الأعين التي تراقبه من بين الحقول. أعين سوداء بهالات بنية، تدور حوله وتتبعه، تنق في أذنيه، تلهث وراءه. تحاول أن تلمس جسده. الآن شعر بها. فر إلى الكشك، أغلق الباب جيدًا. زحزح الفراش وأشولة البلح وراءه.

كان جلده يخضر مع الوقت، يزحف إلى قدميه ورقبته. رأى ذلك فرفع الزير وكبه على نفسه، امتد الماء وبلل كل شيء: الأحبال والمقاطف وشكائر البلح المرصوفة فوق بعضها وراء الباب. خرج إلى العتبة. سمع أفواهاً ترتشف من ماء الزير، جلس في الركن يقرأ آية الكرسي. بلل ريقه بالأدعية الحافظة من شر كل شيطان وهامة، أو إنسان. لكنَّ صوته يعرض، وقدميه تنشران. كل شيء في الحجرة يتغير، مروحة الحائط بدت كثعبان ملتف حول ثلاث بومات، تحدقن فيه. والأحبال تشكلت على هيئة مسخ، صنع مشنقة ورمها في وجهه، حملها الناموس العملاق وألقاها حول رقبته. ارتجف،

تتم الصلوات وسمع صراخ الوليد.

صوت الوليد بوق، أعاد الأشياء إلى سيرتها الأولى. مسخ الأحبال تكوم في الركن، والمروحة تلف وتتن بصوت مزعج. مشى إلى النافذة. ألقى نظرة. دار حول الكشك والمشاتل والطريق، صرخ: يا أيها الصوت من أين؟ من الجهات الأربع، من السماء، ومن أسفل الأرض. سيعود إلى النيل ويشاهد جسد الوليد، رغم ثعالب الحقل التي تطل بأعينها. يظنها ثعالب ولم تكن كذلك. أعين سوداء واسعة بحلق كبير، تنتظره وراء النهر. تهمس "تعال. عد إلينا". يصل عند النهر وينبش التراب بيدين متقوستين، ولا يجده بالأسفل. يسمع الهمسات ويدرك الأعين، يخرج أصحابها من الحقول فيرى حقيقتها. لم تكن بشرية تمامًا، لها قامات البشر وأجساد الضفادع، وكانت تقف بحزن كأنها تشيع الوليد أو تشهد نبش القبر. ضفدع يرتدي بدلة، وآخر يرتدي جلبابًا، وواحدة ترتدي فستانًا أبيضًا من الحرير. ضفدع يمسك منجلًا في يده، ويبدو غاضبًا بشده. يفر شبل من أمامهم وتطارده الضفادع جميعًا. لماذا تفعل ذلك؟ لماذا أخذوه؟ وإلى أين؟ تعثر. وقعت طاقيته. تركها لهم. التفوا حولها ثم وقعت منهم فتشاجروا عليها. وصل شبل إلى الكشك. لهث. استلقى على الفراش. وضع المخدة على رأسه. حاول الهرب بالنوم، وبأذكار النقشبندي.

صحا في الصباح بنصف عين على صوت ابنته فاطمة وقد أحضرت الإفطار. كانت على غير عادتها حزينة، تعجن الهم وتخبزه كأمها. عندما

دخلت إلى الغرفة رأت كل شيء على حطة يدها، ما عدا ماء الزير وجلده المخضر. سألت أباه عن الأمر فانتفض، خرج حافياً معمّصاً إلى القصبان. يتفقد كل شيء: النافذة نظيفة، القصبان نظيفة، والحياة تدب في البلدة. يسمع صوت فاطمة من ورائه "لماذا لا تعود إلى البيت يا أبي؟ عشرون عاماً بأكملها وأنت تنتظر القطار، تلوح للغرباء. ماذا تنتظر؟". عشرون عاماً قضاها بين القصبان والنيل، ينتهي من الوردية فلا تأخذه قدماء للبيت. يذهب إلى النيل، يلقي الحصى الصغيرة ويراقبها تقفز حتى تغرق. كاد أن ينسى طريق العودة، نقطة البدء ماذا كانت؟ لماذا جاء هنا؟ لماذا تركوا بلدتهم القديمة؟ تابع السير غائماً وفاطمة تقول "تحكي لنا أمنا عن الخضر، تقول كان نبياً، كان يشبهك. لا بالحي ولا بالميت، يزور الغيط والحقول، يتحسس البيوت الطينية. في سفر دائم بين أزمان الله، مشيت في البلاد، وقدماء متورمتان من طول المسير. لا نخبرها بالحقيقة. نتركها تخرج صوره لنا، في الابتدائية، والإعدادية، قبل أن يقفز في القطار". لن يستمع إلى وسوستها. يعنفها ويأمرها بالعودة إلى البيت، والقطار يفرم كل شيء. يعود سريعاً إلى الكشك. يقرر الرجوع إلى الدخان. يخرج الجوزة القديمة من أسفل الكرايب. يغسلها جيداً وبعدها يتجول بين الحقول حتى أشجار البوص ويقطع الكثير منها، يهذبها بالسكين. يذهب ليشترى المعسل القص ويعود مرة أخرى إلى الكشك، بعد أن مر القطار - دون وجوده - بغير سوء.

وجد بانتظاره ثلاثة مفتشين، يجلسون على الدكة ويرتشفون الشاي.

لم يتركوا له مساحة للتحدث، وتبرير غيابه عن المزلقان في ورديته الثانية. أخبروه أنه تم تسريحه لسوء السير والسلوك. قالوا "يا شبل. نعرف الأشياء التي تدور في رأسك". حاول الدفاع عن نفسه، أخبرهم عن سنين مرت دون حادثة. أقسم بحياة الخضر فكذبوه. أخبروه أنهم يعرفون ما دار في الليل، وأخرجوا أشلاء الوليد. عين مفقوعة وذراع مبتورة وحبل سرية مربوط. نظر إليهم مبهوتين. أخبروه عن الضفادع التي تنتظره. سألهم "آية ضفادع؟"، هاج فيهم. رمى الجوزة في وجوههم. تمزق جلدهم المزيّف. بدوا على حقيقتهم تمامًا. مفتشون مزيّفون. ضفادع لا أكثر. دخل في معركة معهم على القضبان، ورأى القطار آتياً من بعيد. كان المسافرون على هيئة ضفادع أيضاً. توقفت المشاجرة. لوح لهم شبل مع المشرفين. هدؤوا اللحظة قبل أن يتابعوا القتال. وقع على الأرض. مزقوا جلده بأظافرهم. أطلق صوت نقيق غاضب. صار أخضر مثلهم. قفز على أربع هارباً حتى وصل إلى النيل. هناك كانت الأغنيات تنتظره.

البرص

هناك، حيث يسكن سلطان، مفترق طرق. وساقية مهجورة يعيش في بطنها، مع الجرذان والأفاعي، وجنيّة تدلّك ظَهْرَه كل مساء. قبل عشرين عاما سكن الساقية عفريت من الجن، سلسلها بماء مَهِين، تسرّب إلى الأراضي الزراعية، فدعى الجرّاد إليها. ولم تفلح محاولات أهل القرى في صدّهم. كانوا يشعلون النار في البراميل والأطباق البلاستيكية الكبيرة، ويهبون السماء بالدخان والروائح العفنة، يشعلون الشابة والفاسوخ، وينثرون الشيح في الشوارع وعلى الجدران، ولم يقترب أحد من الساقية المهجورة من بعدها. لكن الجرّاد مأمور؛ أكلها، وحوّلها لعانس وهبت نفسها للعفاريت. الجنّيّ الأول أنجب امرأة، عاشت في الساقية. يقول أهل البلدة إن سلطان يضاجعها كل ليلة، وتهبه من سحرها فيغفل الناس عن وجهه المطبق القبيح، وعينيّه الجاحظتين. الشوارع التي ذوبها لم تنظر لوجهه، لم تحبّئه بين أشجارها وعششها، ولم تناوله النساء شربة ماء. كل نهار، يتسلق سَلْبَةً طويلة، يزيل

العماص من عيني الشمس، يركب دراجته، ويحمل أمامه مسنًا صغيرًا، يهيم في البلاد، يسنُّ السكينَ ويسنُّ المقصَّ.

وهناك في بيت نيّ مظلم، تمسك الجدة سكينًا، بينما تقف صغيرتها الخائبة في الركن، تخاف أن تذبح بطة سوداء وضعت الفول المبلول في حلقها على مدار شهر. الجدة تلوح بالسكين في وجه الفتاة، تحذرهما: "اليوم هو موسم البط، ولن أدعك تأكلين نسيرة منها إلا إذا أمسكت رقبتهما، وستبقين مسمومة، ولن يقترب أحد من باب البيت لخطبتك". وارتفع نداء سلطان المبحوح فوضعت الأم السكين في يد ابنتها، وأمرتها أن تخرج من البيت، وتلاحق هذا الولد، ولا تعود إلى البيت والسكين ثلثة. جلست الأم مع حماتها، والبطة مقيدة من رجليها، في حوش صغير، تنتظران عودة الفتاة.

كانت خائفة، تسمع حكايات كثيرة عن هذا الرجل، يقولون إن الجنية تحمله على جناحيها، وتطوف به على القرى والبلدان. يسرق الأطفال في شوال على ظهره، لتأكلهم في الساقية المهجورة. يقولون إنها حامل بولد، رآها أحدهم - قبل أن يموت على يدها - تجلس ببطنها الكبير، تلحق سكاكين سلطان، ولم يعرفوا من أين وصلهم الخبر. يا للقرف، قالتها الفتاة، وهي تنظر إليه، يؤذن في الناس فتخرج النساء من بيوتها، ويترك الجزائريون المسنون دكاكينهم، ويلهثون وراء مسنِّ هذا الولد. التفَّ حشد الناس حوله، وكان العدد يزداد مع مرور الوقت، وهي واقفة في مكانها، تخاف أن تقترب. ترى سلطان يمسك سكينًا، ويقربه من وجهه، يوشوشه

بكلمات غريبة، كأنها تعويذة، ثم يقبله ويضعه على المسن. يدير العجلة، فيبدأ القرص في اللف، وتبدأ شرارة صغيرة تهرب من تحت يديه، كأن السكين يئن. يضغط على نصله، فيخرجه عريساً، حاداً، يسرق رقاب الدواب والطيور، رحيماً، لا يؤذي إنسياً. في هذه اللحظة، شعر سلطان بنفخة ساخنة في أذنه، توجهه إلى حائط بالقرب منه، ورأى برصاً يركب طائرة مرسومة على الحائط، ومتجهة إلى بيت الله الحرام. حدّق سلطان في الحائط، ورفع السكين من على القرص، راقب البرص وهو يلهو، من طائرة لسفينة، يمشي على حروف الآيات القرآنية المكتوبة على الحائط، يقفز على الكعبة، وعلى رؤوس الحجاج، ثم إلى مقام إبراهيم. هنا، يعدو سلطان وراءه، يحاوطه بالسكاكين، ويترك الحشد. تتبعه الفتاة المذعورة بسكينها، تحتبئ بالقرب منه، فتراه يقترب من البرص، ومن السكين المغروس في ذيله، ثم يمسكه من رأسه ومن ذيله، يوشوشه، تقترب منه الفتاة، وتسمعه "أخيراً وقعت يا جبان!".

لم يتوقع أحد ما فعله سلطان، ولم يفترق الحشد عندما رآه لاهثاً، فرحاً، يضع البرص في قنينة زجاجية، أخرجها من كيس مصرور، ويأخذ الدراجة ويترك الحشد والسكاكين، ويعود إلى الساقية المهجورة. الفتاة بكت جوار الجدار، كانت ترتعد تماماً وتفكر ماذا ستفعل جدتها بها، ومن أين سيأتي العرسان لها. ربما تحرّمها من الطعام أو المصروف، أو تمنعها عن لعب الغلاء بالخارج، وربما تلقي بها في نار الفرن الطيني، حيث تجلس دوماً،

وتبصر نساء الجن. قررت أن تعدو وراء سلطان، رغم خوفها من عضته ومن الجنية الجائعة. وفي الطريق، حمل سلطان البرص حول رقبته. كان يحرص أن يكون قريباً منه، يريد أن يعرف، أين اختبأ كل تلك السنوات. هل هاجر إلى بلاد بعيدة، واختبأ في لحاء الأشجار. لكن السؤال الذي حيره لم يكن بسيطاً، من أين أتى بهذه الشجاعة، ولماذا فعل ذلك؟ لم يرد البرص على سلطان رغم تكراره للأسئلة، وفي النهاية وعده بالأمان، ولم يكن صادقاً.

توقّف ليقضي حاجته أسفل شجرة، ورأى ظل الفتاة يطارده، اقترب منها، فأشهرت السكين في وجهه، تشعر بالرعب، ويشعر بالتوجس. شم سكينها وعرف أنها باردة. قالت إن جدتها ستعاقبها. خمس دقائق يسكن السكين ويكلم البرص، والفتاة يزرق جفنها من الخوف.

"ألم تعرفيه؟"

قالت: مجرد برص.

رد عليها غاضباً "ليس مجرد برص، بل برص إبراهيم، ظل خالداً طوال تلك السنين، ظل هارباً، ووقع في يدي!"

خطفت الفتاة سكينها وركضت نحو البيت. مستها الحمى ثلاث ليال، ظلت تهلوس: البرص الذي نفخ النار على سيدنا إبراهيم معه في الساقية المهجورة، اقتلوه، أنا خائفة يا أمي. الجدة تسمع كلام الفتاة، وتقرر

أن تخرج بنفسها لهذا البرص، وتعرف ماذا فعل بحفيدتها. هناك تحت الشجرة، تسمع صوته المبحوح، تخرج بجلباب أسود، ورأس معصوب، توقف سلطان، وتسأله عما فعل بحفيدتها. يرد عليها قائلاً "الفتاة رأته، ولم تكذب قلبها!". ثم أخرج القنينة من الكيس المصروع حول رقبتها، وأراه لجدتها، فاحمر وجهها غضباً، ولطشت القنينة وأوقعتها على الأرض. صرخ فتجمع الناس حولهما. قال لهم إنه البرص الملعون، أمسك به بعد سنوات طويلة اختبأ فيها من البشر. بينما حمل أحفاده خطيئته، فالتصقوا بالأحذية والجدران، وهرست ذيولهم وتناثرت دماؤهم بين البشر. صاح فيه الناس، "يا مجنون!". لم يصدقه أحد، إلا رجل بلحية سوداء، سرق القنينة الزجاجية، وحاول أن يكسرها، ليقول البرص. لكن سلطان قاتل، قفز على الرجل ولكمه في جسده، عضه من أذنه، فترسبت الدماء على خده، بينما نهضت الفتاة، وشاهدت ما حدث من سطح بيتها.

ظل سلطان يحوم حول القرى، يسكن السكاكين، ويعرف الناس على البرص. وظل الناس ينعتونه بالجنون. لم يسلم من الرجل ذي اللحية السوداء؛ ظل يطارده من بلدة إلى أخرى، ومن حفرة إلى دحيرة، يحاول قتل البرص. وفي يوم، لم ير الرجل القنينة الزجاجية معلقة حول رقبة سلطان، خن أنها في الساقية المهجورة. فكرر كثيراً، وقرر أن يتسلل إليها وقت الظهيرة، حيث يجتبي الناس من لسعة الشمس. حزم نفسه بجلبابه، تمسك بالسلكة ونزل إلى بطنها، وهناك وجد الجنية بانتظاره، وعاد إلى الناس

درويشا، يسكن المقامات والمقابر، ويدعو الناس للإيمان.

انتشرت الأقاويل في البلاد، وتزايدت الوفود إلى الساقية المهجورة، ليتشاوروا في أمر البرص. كانت ليلة جمعة، هلالها بازخ، ينير الأرض مع مشاعل الحشد الكبير. خرج سلطان مع البرص أخيراً، انتظر الناس خروج الجنية، فلم تخرج، وتزينت في مرآتها بانتظار سيدها. ارتفعت صرخات الناس. طالبوا بقتل البرص والثأر لسيدنا إبراهيم، قال أحد الرجال: "إذا تركناه يمرح في الأرض سيكون إبليس جديد"، وقال آخر: "لو قتلناه نأخذ حسنات كافية فندخل الجنة"، وقال شاب صغير: "نعصره ونعالج الأكمه والأبرص". صاح سلطان فيهم: "ولماذا لا نحاكمه، ربما يمتلك حجة، أريد أن أعرف لماذا فعل ذلك". انتشر المهرج بينهم، وانهالت الشباشب على رأسه من كل اتجاه. حتى جاء الدرويش يخترق الصفوف، ومعه الفتاة الصغيرة وجدتها، فهدأ الحشد وترقّب. وخرج النور من فم الفتاة: "أشعل البشعة.. قضي الأمر".

أشعل الناس النار وجلسوا في الصفوف. بينما دفن الدرويش طاسة البشعة في النار، وكتب في ورقة صغيرة الجريمة التي ارتكبها هذا البرص، ثم دفنها كالحصاة بالقرب من الموقد. كان سلطان شاردًا، ينظر في عيني البرص فيرى ألسنة النار تعلو، مع نفخة الكير. كان أبوه حدادًا، لكن باب الحداد مخلع، من أجل ذلك أخذه إلى المعلم حافظ، ورآه سلطان يدق على الحديد، يلينه ويشكله مثلما يشاء كقطعة طين. تعلّم الحدادة على أصولها،

كيف يصنع البوابات والنوافذ بأشكال جديدة، كان بارعاً، وكان يحب الرسم وخرط الحديد. لم ينس عندما رأى "سكينة"، ابنة المعلم، للمرة الأولى، كبت الشاي في حجره وركضت إلى الخارج. ولم ينس حين طلبت من أبيها يدا جديدة للهنون، فرجع إلى عشته القديمة، وجلس أمام المنفاخ والمطرقة، أشعل النار من أجل عينيها، وظل ينفخ فيها. صنع عروساً تشبهها وأهداها إليها في الصباح، رأى أبوها اليد فاشتعل غيظاً، واعتقد أنه يشاغلها. أمسك يد الهون ودغدغ بها رأسه وطرده من البلدة. وظل يردد بصوت ساخط "اذهب أيها البرص". سلط عليه طوب الأَرْض، الكلاب والشمامين، حتى سكن الساقية، وقابل هذا المخلوق الصغير، المسكين، الذي ينظر إلى الطاسة الحمراء، يُخرج لسانه مستسلماً، ويلعقها ثلاث مرات، على مرأى من الحشد الصامت. لم يتألم البرص، لم يبك، أخرج لسانه الوردي للحشد مرة ثانية، وقربه من الدرويش الذي هَلَل ورقص، وتركه يذهب لحال سبيله. لكنه نظر إلى سلطان نظرة أخيرة، واتجه إلى ألسنة النار وقفز فيها.

النَّداة

الشتاء هنا مائل للزرقة، يأكل العظم والبيوت.. ميزان ماء يحني ظهر الناس، رغم الشاي الأحمر وشكائر الفحم. حداة تقضم الأصابع وغراب يضرب الغلة بالطوب. الرئيس حسن معجون من صخر، جسده يسد عين الشمس، يعادي الريح، يوشوش الندى على أعواد البوص والأشجار. يشق أرض الموز وجنائن البرتقال، بقامة تعلو أبراج الحمام، يتجاوزها... يسير على الأسفلت، ويترك على أثره جمراً. وراءه ولده ناجي. وهناك التملية(*) يجلسون أسفل قضبان القطار، يشقون ريقهم بالفول والبصل، والهمسات: أسرار الطوب، كرامات الخراسانة، وعرق يذيب الحديد.

مع ضوء الشمس، تدخل صببية على رأسها بلاص من صخر، يليها أرواح تنبت من أرصفة، تعفرها بتراب مبتل. مُسن يحاول جذب الشبان

(*) الفواعلية، رجال يغدون خصاً ويعودون خصاً.

للملابس قديمة، يعرضها على حبل مشدود بين عمودي إنارة.. قفص خشبي معلق على صدر فتاة تبيع السمسامية، ورجل يجلس أسفل الأقدام ويلمع المداسات، أمين شرطة يحط على السائقين في موقف السيارات، "عرق سوس، شفا وخير، بسبعة ونص يا ولاد الكلب".

مطرقة طويلة.. أجنة.. عتلة وشاكوش.. تقف أمام الرئيس حسن وأمام التملية، محزمة جيداً ورأسها للسماء.. التملية رجال أقوياء، يجلسون حول صينية الميدان، يأكلون ويشربون وينحلون وبريس الأنفار.. والرئيس حسن يجلس منزوياً، يلتقط همسات الحصى وأنات الطوب وديب عربية ريس الأنفار. يراها التملية فيتركون رؤوس البصل، يقفز الرئيس حسن إلى العربية فتتهتز الأرض، ومن بعده ناجي. تطلق العربية نفخة عالية، يلتقط الرجال أدواتهم ويهرعون كالجراد؛ يقفزون من كل اتجاه، يبحثون عن موضع آمن قبل أن يرتفع الصندوق الخلفي عاليًا. من أراد أكل العيش لن يقع، قانون البقاء موضوع على يد ريس الأنفار. تبدأ العربية في التحرك وترفع صندوقها عاليًا، فتغربل التملية على الأرض، هناك من ينجو؛ الذين يضعون مطارقهم وسط الحديد، والذين يحزمون أنفسهم في جانب العربية، أولئك هم المصطفون من الرئيس حسن.. الواقف أعلى العربية ممسكاً بناصيتها وولده، ويده الأخرى ممدودة إليهم.

ضربة الرئيس حسن يعرفها طوب الأرض، يقف على سور مبني على نصف طوبة في الطابق العاشر.. يمسك المطرقة بقفاز من قماش ورأسه

معصوبة بشال حجازي. يتنقل على السور بقدمين مصبوبتين، وثعبان أزرق مدقوق على الذراع.. وناجي بالجوار مع التملية يأكل الجدران والخرسانة، همست طوبة للرئيس حسن عن امرأة فاتنة قفزت مع وفاة العنديل، وطوبة حكّت عن رجل خاض ثلاثة حروب، فقد فيها قدميه، كان يسمع آهات زوجته في الغرفة المجاورة مع رجل آخر. الطوب يعرف الحكايات، يتوسل الرحمة من الرئيس حسن، وهو أرحم الناس؛ يطوحها بضربة واحدة.. حد الله بينه وبين طوبة تحمل مسكناً للنمل، يطرطر عليها ريس الأنفار بالأسفل.. برائحة شعره المختلطة بالزيت الحار وبقايا البراز، فتجذب الهاموش والحشرات إليها..

النملة كبيرة بمؤخرة سوداء، تشبث بأرجل رفيعة، ينفرج منخار ريس الأنفار مع شلاله الأصفر، يسقطها من طوبة إلى أخرى، تقع فتطفو على بقايا الردم، تتعرج مع الماء بالقرب من قدميه، فيدهسها بحذائه الباتا.

يقفز الرئيس حسن إلى السلم ويترك ناجي على سقالة خشبية؛ كان محصوراً.. سار بين الحكايات حتى وجد مصنعاً للسيراميك، دخل بقدمه اليسرى إلى دورة المياه.. القاعدة إفرنجية.. أسفلها تاج منقوش.. أسقط نصف سرواله، أشعل سيجارة وصعد على وجهها المغلق.. قرفص على صندوق الطرد.. حيره أمر هذا الكنيف الغريب، لم يعرف ماذا يفعل.. قرر أن يصوب على بلاعة صغيرة في الركن، ثلاثة قطرات صفراء وبعدها اصطدمت رأسه ببلاط الأرضية، واختلط الدم بالبول، والحابل بالنابل،

ولم يعرف التملية سر تأخره إلا مع رسول جاء من المصنع.. الرأس مشقوق من الجانب، والدم حمر الشال، واليدان متدليان على ألواح الخشب.. لا حول ولا قوة.. هوة عميقة.. وعتمة تحاصره.. وولده يلطم في صمت.

على سهم حقل فوق شكارة علف جلست زبيدة وكشفت عن ساقها. تمسك كورنيش فستانها وتمسح آثار الكحل المالح.. شعيرات ذهبية وجدتها الجدة على صينية الشاي، التقطتها، وأخرجت ورقة الكحل الحامي من جيبيها. أمسكت الأم صغيرتها وملأت جفنيها بالكحل، تحببت الصغيرة في الجدران. لم تصرخ، لم تكن المرة الأولى التي تؤمر فيها الأم بأذية ابنتها، تقول الجدة "الكحل يوسع شرطة العين"، وزبيدة عيناها ضيقتان، تفتحهما نصف فتحة لترى الطريق، إلى حوض الطرمبة، لتغسل عينيها بالماء والبرد، وتسير نحو السهم المطل على النهر. وناجي على حمل من البرسيم مجدول كضفائرها، يقفز من على الغبيط، يضرب الحمار على مؤخرته ضربتين، ويبتعد.

شده عيناها الضيقتان.. كمجذوب، والنهر ضيق. يحمل زبيدة على الجرف، ويطير الهواء فستانها. تحفر الأرض من أجل طعم.. يقترب منها فتحكم قبضتها على الطين.. لا تريد أن يراها أحد.. جلس بجانبها وتتبع دمة سوداء، ابتلعها الأرض.. لا يذكر ماذا قال: "أنتِ عروسة المولد"، ثم نفخ فمه بالهواء، وابتلعه، وبعدها أخرج برتقالة من أذنها. ضحكت

وخطفتها.. ركضت بين غيطان الغلة، قفزت فوق الأنابات، وعلى سلخه يحدها بطات الكرب أمسكها.. كان طفلاً هزياً، أرفع من عود ذرة وأكثر قوة من فأس.. اقتلعها من الأرض.. حملها على ظهره وطار بها بعيداً.. عند مركب صغير أخذها، خلع ملابسه وقفز في النهر، ارتعشت زبيدة من برودة الماء، لكنها قفزت وغابت عن الأعين.. سنوات يبحث عن رضا أبيها التتن.. يجلس الآن بالقرب من عربة الفول، ينزوي في لباس أبيه، بشحمه ولحمه، يرى العربة تتقدم إليهم، فيلتقط أدواته ويجري لاهئاً بين الجموع.. كانت على بعد خطوة؛ بعيدة ومكتظة بالأنفار، ركض تجاه الصندوق، تفادى السيارات الغاضبة، والباعة الذين يرفعون آذانهم. ارتفع صندوق العربة والتملية تشبوا بها، يغضون الطرف عن ناجي.. رمى العدة داخل العربة.. أعماه عادم السيارة وملاً حلقه بالبلغم، سعل، قفز فأمسك مؤخرة العربة، تزلزلت يده، رفع جسده وألقاه داخل الصندوق.. تمسك بجانبه، ارتفع الصندوق للأعلى مرة أخرى.. لهث، صدره مليء بالدخان، أحس بدوار لكنه هبش أرضية العربة بأظافره.. تماسك.. رفضه أحد الساقطين، كاد أن يقع.

النجاة: أن يهجر الحوائط والسقالات ويقف على السور مثلما وقف أبوه، أمام أعين التملية وعضلاتهم البارزة، يضرب الجدران بقوة. هو رجل من ظهر رجل، وليس عيل بشخة. الشال أبيض يسند رأسه، والمطرقة الطويلة تطير فئات الطوب على الريس، ريس الأنفار. يصعد بصلعة حمراء ويسأل ناجي عن أبيه، فيرد أحد الأنفار "قصداً الخواجة حسن؟" وبكهين

يرد الرئيس "عيب يا ولد!"، يعلق أحدهم "ما كان يعملها تحت شجرة يا ريس"، تنهال الضحكات على رأس ناجي، يتدخل آخر "ويمسح طيزه بورقة منها"، ويتابع ثالث مع الضحكات "أو يفركها بحبة تراب، أو حبة بركة يا ريس!".

جرس هاتف ينقذ ناجي.. لوهلة.. يتعفرت الرئيس وتركبه الشياطين، ينط على سور ناجي نطة واحدة، يوكزه بأزميله، ويقول "أبوك مطلق على خلق ربنا، اربطوه!". الرئيس حسن هرب من البيت، جلس في الشارع بالفانلة واللباس، تعارك مع الحجارة وطوب الأرض.. اعترض طريق الناس ولسعهم على قفاهم.. كان يأكل من القمامة عندما اقتربت زبيدة.. أعطته رغيفاً وكوب شاي.. سلم عليها ببشاشة للمرة الأولى، ثم قبل بياض يدها وشدها، فانقلبت على الأرض، وتعرى من ملابسه. كاد يقفز عليها لولا أن تدخل الناس، ستروه وأعادوه للبيت، ركضت زبيدة على طول الطريق.. ظل ناجي صامتاً.. لم يقدر على الرد.. الرئيس غاضب.. "رد يا ض"

الرئيس يتوعد:

"اقطعوا عضوه.."

الرئيس يقسم بالطلاق ثلاثة "اخصوه".. شارت عليه أم ناجي من قبل أن يربطوه.. شدد عليها أن تقفل الباب بالفتاح.. هرب! كيف؟!

الأسئلة تطحن رأسه والشمس تأكلها، الرئيس يتوعد والأنفار يضحكون
علانية.

الصور تومض: قبلته لزبيدة تحت الماء، علقه ساخنة من أبيه، مركب
وعينان مكحلتان، دراجة ركبها بمساعدة والده، غيطان غلة، وجذع شجرة
فلقه ببلطة أبيه. ماذا سيفعل ريس الأنفار لزبيدة، سيزوجها لرجل آخر بعد
الدبلوم، رجل نتن، لماذا صعد أبوه على صندوق الطرد؟ ستضيع زبيدة من
أجل شخه، شخه يا ناس، شخه يا خلق.. "اربطوه"، "ما ترد يا ابن الكلب"،
قالها ريس الأنفار.. الرئيس حسن كلب! صاح أحد الأنفار معترضاً.. فارت
الدماء في رأس ناجي، لم يرد، قد يخسر زبيدة، أكل العيش مر والعشق مر..
سكت.. كررها النتن بأزميل حاد، وبضربة واحدة، كما الرئيس حسن، طوح
ناجي السور من تحتها، وطار الرذاذ مع الهواء والأحلام.

القطُّ

تأتي الصبايا إلى حفرة عميقة فيها ماء كالزفت، يحملن الجراكن فوق حوايات دائرية من القماش، تراقص رقبة كل صبية مع جركنها، دون أن تسنده أو تمسه بيديها، رغم قطرات المياه الوسخة التي تتسرب إلى أنفها وفمها. ثلاثة أشواط وربما سبعة، على حسب وسخ المياه في الدار، وقد تأتي عربة المجاري لتصب ماءها الأخضر هنا، ويعلو طنين الذباب والحشرات، وتكثر فيها الأمراض حتى يردمها الحاج عتمان القط ويسكنها ويعمرها، ويصبح اسمها جورة أولاد القط. وفي جورة أولاد القط لا يهم إن كان الميزان عادلاً، الشيء المهم أن ترى كفة تطب، ويطب معها قلب صاحبته. طبة ميزان تُجَرِّي لعابك الناشف وتشعرك بالشبع. ستتجول هنا وهناك، تنصت جيداً لتسمعها وتدور عينك بين أروانات وطشوت، تجلس أمامها زوجات القطط، فضية مملوءة باللحم والحلويات، نساء يجلسن بجلاليب

فاقعة، لها صدور مستطيلة منقوشة، تلتصق بها روائح ننته. لو دقت النظر سترى أرواحاً عالقة، سبعة حيوانات وربما تسعة، تتناثر بين الأروانات. بين الأرواح امرأة تسند رأسها وتشمر ذراعيها، تكشف عن شعيرات ناعمة فوق جلدها الغامق وهي تزن لحم الرأس، وفي الركن امرأة أخرى تبيع لحم القلب، وأمام عتبة خضراء تجلس امرأة ثالثة تنتف قربة ماعز وتجردها جيداً. واحترس من بائعة الممبار، فهي لا تضحك أبداً. تستطيع أن تعرفها بشعيرات أنفها. هي لا تموء مثلهن، تكتسي بالسواد، ولا تكتحل منذ وفاة زوجها الأول، الابن البكري لأولاد القط. حول رقبتها كيس يمتد إلى صدرها، اسمها أم خالد. إذا أردت مناكفتها، فامدح خالدًا. قل عوده فارح كعود أبيه، وشرطة عينيها الخالق الناطق، وراقبها - بعد ذلك - وهي تمرش أمعاء الخاروف كبقعة موز التصقت بقميص ابنها. الآن قلبها وتغسلها، ولن يطول الوقت حتى تتخلص من نتانتها، تفركها بالملح الخشن، وتغسلها بماء غزير من خرطوم جوار عتبتها. تسمع طبة ميزانها تدب بقوة، وبعد أن تلتقط الكيس من يدها تسابقك أنفاسك، حتى تصل بيتك مرفوع الرأس بغنيمتك الكبرى، وقد تقابل في الطريق خالدًا، يمسك المصحف ولا يراك، ولا يهتم بوجودك من الأصل.

اللوح لا بد أن يكون محفوظاً، يمشي في الطريق على سلخة ترائية تحدها أنيوتين، يجري الماء فيهما مع أفراخ الضفادع، يقرأ الآيات بصوت مسموع "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ

وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ". يردد دون النظر إلى المصحف، ومع كل مفردة مميزة يثني إصبعًا؛ النفس، العين، الأنف، الأذن، السن، والقصاص. يمر على بيوت سيجت الزرع وأناس يضربون الأرض فيصنعون قوالب منها، يرصونها فوق بعضها ويحوطنون عشة من أعواد الحطب المجدول. يصل إلى بيت عمر ابن الشيخ، يختلس النظر فيرى الأخت تركب على ظهر أخيها. يركل الأرض مثل خروف، فتعلو ضحكاتها. يشم خالد رائحتها الجميلة، لِيَّة خروف عفنة تسيح على النار تعكرها، لا يعرف مصدرها. تصرخ الطفلة بلذة "سندبح الشيخ سيد في العيد"، فيتذكر الشيخ، واللوح، والنفس، والعين، والسن والفلكة، فيتابع الطريق. يصل إلى سور السلخانة، يشم رائحتها النتنة. على جدرانها أياذٍ من دم، عظام لحمها متآكل، أرواح تحب الحياة؛ تخرج في المساء فتسود ليل السائرين جوارها، تؤنسهم تركب على حميرهم، عجلاهم، تداعب نسوانهم، وتلقي النكات عليهم فتضحكهم أو تميتهم من شدة الضحك. تعود في الفجر إلى الجدران أو تعلق داخل السلخانة. يراها خالد مغروسة على خطاف ثنائي مع الخرفان والبهايم، يسمع همساتها "كن رحيماً بنا وتعلم الذبح!". يتأمل أجسادها الغريبة ويلمح على خطاف جسد عمر معلقاً، دم أزرق يسيل من رقبتة. خط رفيع يشق الطريق ممتزجاً بدم الذبح. تتلاشى الخيالات على سكين موضوع على رقبة خالد، يهمس العم "الآن، تسرق السكين روحك"، يلتف فيراه يضحك منتشياً بروائح الدم. جزار لم تلده ولادة، رحيم على الذبائح،

لا ترى يده من فرط خفتها، لكنها لا تُفزع خالدًا. هنا داخل السلخانة لا يعرف غير الدماء والرؤوس المبتورة، يراها دون فزع، أما خارج جدرانها فيتذكر الفلكة والذبائح المعلقة على خطافها.

ركض إلى الطرمبة ووضع المصحف على حوضها، أمسك يدها كما يمسك الفأس وضغط؛ فأخرجت الماء من فمها. قبل المصحف ثلاثًا، وردد اللوح، النفس، العين، الأنف، والفلكة.. الفلكة. وظل يرددها حتى وصل إلى الكتاب. نزل درجتين، سمع أصوات القراء مطمئنة ومخيفة، أخذ نفسًا وعدل من هيئته. ألقى نظرة على أظافره المقروضة، دخل وحده، وترك الخوف بالخارج. جلس على مصطبة بعيدة عن الجدار الضعيف، راجع اللوح مرة أخرى، البداية مربكة، ستة أشياء، أولها النفس والقصاص آخرها، والفلكة تقع في مكان ما. كان كالمسبح على أنامله، يغمض عينيه فيرى الذبائح تجلس على المصاطب وتصطف أمام الشيخ، أحدهم يمسك بالمصحف ويصح اللوح للآخر، وآخرون يسندون الجدار الضعيف بمخالبهم. يأخذ دوره في الطابور. الشيخ يجلس على كرسي في المنتصف، يقترب خالد من لبنات الجدار والفلكة. يسمع عمر يقول "تعال". يقف أمامه مرتعشًا والمصحف وراء ظهره، يبدأ في تلاوة اللوح ويرى صورًا، تومض هنا وهناك، أرواح تقفز على الجدران، تهزها بقوة وهي ترتل الآيات. أعواد السقف تكاد أن تقع، الجدار الضعيف يتهاوى، عنزة صغيرة تصح لوحتها تمتد إليها سكين، تحررها فتزق مع الأرواح. وسوسة تهمس بالآيات، النفس،

العين، القصاص، الفلكة. يستمع إليها، يهمس معها، ويسمع مأمأة عمر، والقلم الأحمر ييقع المصحف. ولم ينج من القلم، من اللوح المحفوظ، من النسيان والفلكة. قدماه مرفوعتان أمام الشيخ، وصوت يأتي من مكان ما "أمك جاءت إلى أبي بالأمس"، الصوت لعمر، فماذا يقصد؟ وماذا يريد؟ "أرادت حجاباً يقربك من عمك"، صوت العصا يتداخل مع الهمسات "هل أنت غاضب من عمك لأنه ينام على فراش أبيك؟"، بركان في رأس خالد لا يخمد. لم يصرخ، عار على الرجل أن يصرخ، أن يبكي، الشيخ يضرب بعصاه فتتفلق الصور؛ شبح أبيه يقترب، وعمر معلق في سقف السلخانة، والعم يسن السكين في الظلام و ينتظر اللحظة المناسبة، والعم جزار لم تلده ولادة، رحيم على الذبائح، لا ترى يده من فرط خفتها، ولم يرها أبوه عندما سقط مذبوحاً. حاول خالد المقاومة، رفس الفلكة صارخاً وتمرغ في الأرض مثل حمار ملبوس.

بقدمين متورمتين مشى عائداً مع الطريق، إلى محل الجزارة. يجرهما بمشقة، يستقبله عمه بقلم على قفاه وسؤال على أمه. يعلمه تقطيع اللحم، كيف يمسك الساطور بثقة، ويضرب اللحم بحدة، واللحم من عنده مخلوط بالعسل، والشوربة ترم عظام المتعيين. كريم وكفته تطب بمقدار وهيئة الزبون، وزبائنه ليسوا ممن يشتهون اللحم فقط، فهناك الهامسون؛ الباحثون عن العظم، وهم المفضلون لدى خالد. يعرفهم كما يعرفون أبناءهم، عندما يقبل أحدهم متثاقلاً، يساعده بانتقاء ماسورة جيدة، يفصلها عن روحها

ويلفها في كيس أسود، ويعطيها للرجل. بعد انتهاء العمل، يمر خالد على بيت الرجل، ويشم رائحتها، يميزها، وأحياناً يراها تذوب مع الملح والبصل، في نار عميقة، ويرى مخالبتها تخربش جدار الإناء، تحاول الهروب، وفي كل مرة تشدها المخاطيف فتنزلق إلى القاع، تثبتها، تكتفها، وتكتم أنفاسها ثم تهدأ ويهدأ خالد.

بعد صلاة المغرب عاد إلى البيت، استقبلته أمه بقطعة مخ غارقة في الملح والكمون، ملفوفة في رغيف من القمح الأبيض. وجد عمه يمسك بريموت التلفزيون، يجلس في المندرة مرتدياً الصديري والكلسون. شعر بالشبع، وفي الغرفة أتاها زعيق سريرهما النحاسي. اقترب من بابها، حاول التنصت، لم يسمع غير آهات، وشم رائحة لبن ممتزج بالدماء. قفز الدرج مبتعداً إلى سطح البيت، جلس قرب الفراخ والبط، بجانب طبق الدش الكبير. أحس بسواد يأكل روحه، تذكر ابنة الشيخ، رائحتها الغريبة الحلوة وغمازة خدها الأيسر. ذهب ذات يوم إلى بيتهم ليوصل اللحم والممبار، فأخذت الأكياس وهي تسد أنفها. ووقف كالشحاذ، على عتبة بابها، في انتظار الحساب. علت بقبقة البط في العشة فانتفض خالد مختنقاً. في الحلق صوت محشور، صارخ، وصدر فارغ. سمع صوتاً، منادياً في الشوارع "الله، الله، الله". يعرف هذا الصوت، ربما يكون أبوه، يتموج مع الدراويش وينشد دون أن يتألم. نزل إلى الشوارع، جرى وراء الأشباح والخيالات والأصوات، ولم ير في الحضرة أحداً.

مع أذان الفجر عاد إلى البيت. التقط المصحف، وبَلَّ ريقه بكوب عصير. حذق في جلباب أبيه المملوء بالقطن، ومشى في طريق السلخانة وسط صباح الديكة وزقزقة العصافير، يردد الآيات بصوت مسموع "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ". وصل إلى باب الكتاب، نزل الدرجتين، تنفس اللوح كما الهواء المنعش. نظف صدره، لم ينظر إلى فلكة الشيخ وعصاه، ولا الأشباح التي تسند الجدار الضعيف. مشى وسط الحظيرة بثقة، قدماه تعرفان الطريق إلى الشيخ، ومنها إلى ابنه الجالس بالقرب منه، ورآه برأس خروف. "تعال"، قالها مرة أخرى، بهدوء، بسلام. لن يستمع خالد إلى وسوسة القراء، بعد اليوم، لن يسمح لعمر أن ييقع مصحفه مرة أخرى، وبنجاح اكتمل لوح خالد وأخذ لوحًا غيره ليسمعه غدًا.. أخبره عمر أن أمه وضعت الحجاب في حجرته. جلس بجانبه وطمأنه قائلاً "كل شيء سيكون بخير". في هذه اللحظة ظهرت أخت عمر، بشعرها الغجري ورائحتها الجميلة، أشارت إلى أخيها فتركه وذهب إليها. كانا ينظران إليه بازدراء، وفي غفلة من عمر، لم ير السكين ينسل، لم يشعر بيده من فرط خفتها، كان مثل جزار لم تلده ولادة، وكان رحيماً.

الدَّيْكَ

ثلاثة أيام وأهل القرية يتحدثون، ينخلون الكلمات ويخبرونها، حتى كره الناس مصادفة تلك المرأة في الشارع؛ فمنذ حطَّت رِجلها في حقل الباذنجان، والمرارة أكلته. بقعة دم كبيرة على جلبابها تكفلت بقطع عيشها وعيش صاحب المحصول. ولما حاولت ابتتها الكبرى أن تعمل بدلاً منها، طردها الناس من الأرض خشية أن يكون النحس طالها، فأمرها مدنسة في شرع القرية، ومحرم عليها جمع الباذنجان.

الزوج ما زال في المدينة، يغيب أربعين يومًا وليلة، ويترك أمه في رقبة نعمة وبناتها، والجددة لا تعمل أبدًا حساب الغد، بالأمس جلست أمام موقدها، أمسكت مفراكمها الخشبي، وفي إناء كبير فركت الخبيزة، وبجانب الموقد التفت نعمة ببناتها عندما شممن رائحة الطشة، ولم يتوقفن عن الأكل حتى فرغت مشنة الخبز.

مع صياح الديك المقدس تخرج نعمة من عشها، تسير مع ابنتها إلى القرية، تحذوان التربة، تمسحان الحقول المتناثرة على ضفتيها. تستعطف الأم رئيس الأنفار، لكنه يابس قلبه. لا يسمح لهما بالعمل. تسيران في أزقة القرية وحواريها مع أطفال يحملون أحلامهم وحياتهم في لوح خشبي، يهرولون نحو الكتاب مع البهائم، والبهائم تعرف طريقها إلى الحقل، تتغوط في الشارع. تنظر الأم لابنتها، فتمضي البنت إلى أحد البيوت وتشد طبقة بلاستيكية، بينما تتبع الأم روث البهائم الطازج، تحمله بكفيها.. تدوره، تصنع منه قرصاً ممتزجاً بحبات التراب والقش. لتأتي ابنتها بعدها، تلتقط غلافة متسخة، تسد أنفها، وتهاود لحم بطنها، وتجمعه في الطبق البلاستيكي. لم يمض وقت طويل حتى امتلأ الطبق، لتحمله عنها أمها وتعودا إلى البيت.

وراء البيت، تعمل الأم في مزج روث البهائم بالقش والتبن، وتنشرهم تحت الشمس، ستبيعهم في القرية؛ القرص الواحد يساعد على اشتعال الفرن البلدي أكثر من حزمة حطب، وتقول الجدة إن الخبز المحمي بالروث، طعمه أفضل من غيره.

في اليوم التالي حملت الأم مشنة مملوءة بأقراص الجلة، لفت على بيوت القرية، ولم يستقبلها سوى بيت وحيد. طلت العجوز من شباكها وقالت "اصعدي يا نعمة"، وكانت بركة الديك المقدس تنير سطح البيت وتغسله من الشياطين والغربان. صعدت نعمة وابنتها إلى الدور الثاني، ووجدتا

العجوز تنتظرهما، وأمام الحجرة في الفسحة ثلاثة ديوك تقرقر بشدة. زغدت نعمة ابتتها التي ترتدي هدمة حمراء، واللون الأحمر يهيج الديوك ويغيظهم. دخلت الابنة غرفة العجوز وأحبت يدها، جلست على أريكة مبطنة بالقطن، نُجِدت حديثًا، بينما صعدت نعمة فوق السطح. ولأول مرة ترى الديك المقدس يفرش ريشه فيمر الهواء من خلاله، وبِعُرْفِ دموي يزين رأسه ومنخاره. لم يقرقر الديك طويلاً عندما رأى نعمة، بل ظل واقفاً على حافة السور، فوق أقراص الجللة المتراسة على بعضها، وبدأت نعمة في رص أقراصها الخضراء في الجانب الآخر من السور. كانت تنظر إلى الديك المقدس بين الحين والآخر بتبجيل، فهو القادر على طرد الشياطين، ومواجهة ملاك الموت الساكن في الجبانة المقابلة لبيت العجوز، وهو بقدرته يخيف الغربان السوداء، يقرقر لها، فتهرع كأن أطفال القرية قد أصابوها بكلمة أعور، والغربان عوراء، تتخبط في الشجرة العملاقة لما تسمع تلك الكلمة، ثم تهرب بعيداً، وتأخذ الشؤم معها. يسمع أبناء القرية قرقرة الديك كل صباح، كأنها تنزل عليهم من السماء السابعة، فيخرجون من أعشاشهم وديارهم، ويذهب كل مريد إلى مراده، كل ذلك يحدث بقدرة هذا الديك.

نزلت نعمة إلى الطابق الثاني، طلبت منها العجوز أن تترك ابتتها معها لتناولها الطعام والدواء، وافقت نعمة بعد النظر في وجه ابتتها، أخبرت العجوز إنها ستعود بمشنة أخرى لتكمل رص السور. عادت نعمة لحمايتها

وناولتها ملاليم لتطعم البنات، بلت ريقها بعدما شقته بأعواد الخس الخضراء ولقمة عيش ناشفة أحضرتها الجدة من الجيران. وبدأ الشيطان يلعب في رأسها. نظرت إلى بناتها الجائعات، وحماها التي سرعان ما ذهبت إلى القرية ورجعت بحزمة من الملوخية وحزمة من الجرجير الطازج. لماذا تمكث هنا وتلزق أقراص الجلة وبناتها جائعات؟ تعرف أنهن لا يحببن الملوخية، لكنهن سيحببن طعام الديك الرومي، سيكون كبيراً بما يكفي لإشباعهن أسبوعاً. ستذهب إلى بيت العجوز، وبمساعدة ابنتها ستقوم بإمساك الديك، وتذبحه فوق السطوح، ستفرش المشنة بطبق بلاستيكي، وسيملأ الديك الطبق، كما سيملأ بطون بناتها.

رصدت نعمة بعض الأقراص في المشنة. حملت الطبق البلاستيكي في يدها، وذهبت إلى بيت العجوز. خافت الابنة في بادئ الأمر عندما أخبرتها أمها بما في رأسها، "سنأكل الديك المقدس يا أمي! ستلبسنا اللعنة والشياطين، وربما كان لحمه مسموماً". طمأنت الأم ابنتها وأخبرتها أن الديك لن يخبر أحداً بأمرهما؛ إذا ما صنعا من لسانه شوربة لذيدة. وافقتها البنت. صعدت الأم ممسكة بسكين من سكاكين العجوز، وجزت رقبة الديك المقدس، وعادت إلى دارها برفقة ابنتها. في الليل، أضاءت لمبة الجاز المائدة، الجدة تقسم الديك عليهن، ولا تكتفي بقطعة لكل واحدة، لم تقترب إحداهن من طبق الملوخية المكون، أو من الخبز الناشف في مشنة الخبز، البطون امتلأت عن آخرها. وحدها الابنة أحست بالذنب، ليس من أجل الديك

أو العجوز التي عطف عليها، لكن بسبب الغربان السوداء التي حطت على الشجرة العملاقة.

في الصباح خرجت نعمة وابنتها ليتبعاروث البهائم، لكنهما لم يصادفا صريخ ابن يومين، لم يخرج أحد من داره، الغربان ملأت الشجرة العملاقة وكستها بالسواد. الديك المقدس اختفى، لم يسمع أحد قرقرته منذ أمس، لم يعد واقفاً على السور يعرفه الأحمر، وخطواته الواثقة، ولن يجد ملاك الموت من يواجهه هذا الصباح. توقفت الأعمال في القرية، جفت الأزيار من الماء، جاع الأطفال والكبار. استطاع ملاك الموت أن يدخل بيوت القرية، تعالى النحيب والتعديد، والقرية صغيرة، وملاك الموت يتعسس كل ليلة، ويحجب نور الله عنهم، يمشي وسط الطرقات برجل مسلوخة، متفرعنا، يمكن للحَيِّ أن يسمع دبيبه على عتبة داره، ويدعو الله ألا يتبول أمامها.

نعمة تسكن في الجهة الأخرى من القرية، يفصلها عنهم ترعة جفت أو شربها ملاك الموت. ونخلة بإصبعه الأزرق خوَّحها، كل ليلة يقترب من بيتها أكثر، فتحوِّط على بناتها في الليل، تصيب الحمى ابنتها التي شهدت جريمته، فترى غراباً أسود يقترب، تحذر أمها "فوق رأسك"، فينطفئ المصباح، ويجف الجاز من البيت. يزيد الخوف داخلهما، ويزيد شعور نعمة بالخطيئة، أغواها الشيطان ودنسها ببقعة دم، قطعت عيشها وأيست الأخضر منها.

في الليلة الثانية من ذبحها للديك، عاد العم عليٌّ، زوج العجوز، بعدما

انتهى من عمله في المدينة. زار أولاده المقيمين هناك، فلم يستقبل حضوره أحد. زرقاء كانت عودته حين مشى بعكازه من محطة القطار البعيدة إلى القرية، ينقر الأرض ويسب أهلها المجانين، يجر جر حقيبة سفره، فتصرخ الأرض وتزعق، ومن شدة نقمه على حمار سيد الحلاق، لم يستطع أن يحتمل حصرتة، وفكها على عتبته. الوقت لم يكن متأخرًا حينما نظر في الساعة المعلقة ببذلته، وانتظر أذان العشاء، لكنه -بدلاً من ذلك- سمع أذان ضفدع مؤمن وكلاباً من المصلين يؤمنون. لما وصل إلى بيته، استقبلته العجوز بطبق من الماء الساخن، دلكت رجليه بالملح والليمون، قصت عليه أخبار القرية، والشوطة التي أصابتهم بعد فعلة نعمة وابتتها. العجوز كانت تعلم، لكنها انتظرت وصول زوجها، وبالفعل، بات يتجول في القرية، يفكر في حل لهذه المصيبة. كان يعلم مكانة الديك عند أهل القرية، العرف أحمر، إنجليزي، والريش صنعة ربانية، استلهمها الخياطون في حياكة ملابس العذارى والعوانس، كل القرية تتبع وحي الديك.

وقف أمام الشجرة العملاقة ورأى الغربان تسكنها. خطرت في باله فكرة، سيعيد ترويع الجريمة. وعلى الفور، رجع إلى بيته، ارتدى طاقية حمراء، دخل بصحبة العجوز إلى غرفة الديوك الثلاثة، اصطفى أكبرهم عرفاً، وأعلاهم صوتاً. المشكلة الوحيدة أن عرفه لم يكن إنجليزيًا خالصاً، لكن العجوز لحسته بالحمرة، وتناوبت على تدريبه خمس ليال كاملة مع زوجها، على حركات الديك المقدس، ووقفته الواثقة على السور، فأصبح يأكل في

طبقه، وينام في عشه، حتى ألفها، وصدقها. في صباح اليوم الثامن، صعد العم عليّ وزوجته العجوز إلى سطحهما، أخرجا الديك البديل من عشه، همس في أذنه، ثم وضعه على السور، فنظر إليهما الديك، كطفل في أول أيام روضته، ثم نظر إلى شجرة الغربان.. وقرقر.. فتورد وجه العجوز، خطا الديك على السور واثقًا، وقرقر كالوحي، فتخبطت الغربان، وهرب ملاك الموت. فتحت القرية أبوابها وأعشاشها، حمل الأطفال ألواحهم من جديد، وهروا نحو الكتاب مع ضوء النهار.

الكف

يد الست ملفوفة بحريز، تحبُّ النساء مجلسها لأن وجهها مكشوف. تحيك أقدارهن في هدمة تلتف حول الخصور، تفصل قمصان النوم بحمالات رقيقة، من الساتان، والشفون. تجيد استخدام المازورة، وتكليف الملابس بالقטיפه. تتقن السرفلة والرسم على الصدور. في بيت ورثته عن زوجها، تعيش مع ماكينة تعمل بالزيت، وتلفاز ببطارية قديمة. يستطيع السائر جوار بيتها أن يشم رائحة عرس قادم. منذ خمسة أعوام بدأت الست في الاحتفال بالعرائس بطريقة جديدة، فتحت أعين البنات على الحياة الأخرى بعد الزواج، علّمت النساء صنع الحلاوة، قص الشعر، وباعت أصابع الروح الفاقعة. تأتي الصبايا إليها قبل أسبوع من الزواج، وتتولى أنامل الست كل ما يلزم العرس. شرط أن تحمل العروس السّبت، وتسير على نخلة أمام عينيها، دون أن تقع في الترة.

على هذه النخلة سارت عزة بثبات، تحمل فوق رأسها سَبَّأً مليئاً بأكياس السكر، والشاي. يتراقص السَّبَّاب فوق حَوَاية من القماش، وأمها تحمل ملابس العرس في سَبَّابٍ آخر. دخلت عَزَّة من الباب الخارجي بقدمها اليمنى، ومن بعدها الأم بزغردة طويلة. استقبلتها الست بصينية من ماء الورد ووضعتها على العتبة، خطّت العروس من عليها، وقبّلت يد الست. جلست جوار الماكينة استعداداً لتفصيل الملابس.

الست تعرف طينة العروس من أول شق في هدمتها، من مسكة المقص، من لضمّة الإبرة. اعتادت أن تفصّل ملابس العرس بعد قيام الليل، وعزة طينتها غريبة، لم تمر عليها من قبل، لم يجرحها المقص لتعرف أن العروس ستمر بأيام صعبة، بل كان المسك يفوح من ملابسها، وكان المقص ليناً، لا يحتاج لزيت ولا سنّ. بمجرد أن لمست الثوب ارتجفت، وأحست برعشة تتسرب إلى دماغها، أمسكت المقص وبحثت عن العلامة التي وضعتها أثناء وجود عزة فلم تجدها، ولم تجد العلامات الأخرى التي وضعتها في أثواب القماش. وقع المقص من يدها، وأحست بالرعشة تزداد قوة، تسيطر عليها تماماً، تزلزلها، وشعرت بمذاق علقم في فمها. حاولت أن تقوم من مجلسها لتشرب، وقعت على الأرض، تخشّبت عليها، وقبل أن تفقد الوعي سمعت زناً كصوت النحل في أذنيها، ولم تبصر نوراً؛ العرق أغشاها وبقّع وجهها بحمرة قاتمة.

لأسبوع لم تفتح بابها للزوار، لم تُردّ على نداءات أقاربها، حتى ظنّت والدة العروس أنها ماتت. دارت تشمم الجدران وتسترق السمع. كانت رائحة المسك لا تزال تفوح من البيت، وتشعرها بالطمأنينة مع صوت إذاعة القرآن الآتي من غرفة النوم. السّت تشعر بأنفاسهم ولا ترد، تكرمش ثوب عزة في حضنها، تأكل وتشرب وتستلقي على سريرها، وتقول على الدنيا السلام. حتى جاءت عزة أخيراً بصحبة الأم والخالة، ونقرت على الباب ثلاثاً، وقالت بصوتها الرقيق «افتحي الباب يا ست رقية». قامت الست على الفور من نومها، وفتحت الباب بظهر مخنيّ، وشامة كبيرة ظهرت فوق حاجبها، ورقبتها مزينة بعقد من العاج. أحضرت لهن السّبّت، وقدمت الثوب لعزة، واندesh الجميع برؤية أثواب القماش ممزقة، وبدلاً من فستان العرس قدمت الست كفناً للعروس. اشتعلت الأم من شدة الغيظ، هاجت تصفع الست الخيّاطة وتضربها، بينما ركضت عزة إلى البيت فزعة، وحملت الخالة أختها مع سبت الملابس إلى خيّاطة أخرى، في بلد مجاور، حتى تأمن شر الأعين، والألسنة، والحكايات.

رأى الناس أن الست فقدت عقلها، ورأى البعض أن زواج عزة لن يدوم، وأشاروا جميعاً عليهم بزيارة المقابر ودهن أبوابها بحناء العروس، وكل شر زائل بإذن الله. لم تغادر عزة الفراش ليومين، وفي اليوم الثالث رقصت مع بنات خالتها، صنعت معهن الحلاوة، وقصّت أطراف شعرها، وأحضرت لها صديقتها الروح الفاقع من عروس سابقة. دقت الطبول

بعد المغرب، على خصرها الذي اهتز في منتصف الدائرة، وبنات خالتها يصفقن أسفلها. تعلقو زغاريد النساء حولها، مع وصول حناء العريس على رأس حماتها، ترقص أمام ولدها وتغني «ادلع يا عريس يا أبو لاسة نايلون»، يطمئن قلب عزة تمامًا بعدما يجلس العريس جوارها ويهمس في أذنها «مبروك يا عروسة».

في حضرة النساء دهنت الأم كعبي عزة وكفّيهما، ومن أراد من البنات، وهرب العريس منهن إلى الخارج. وبعد انتهاء الحفل أخذت نساء العائلة ما تبقى من الحناء، وذهبن بعد منتصف الليل إلى الجبانة. خيط رفيع من الضوء يرشدهن إلى أبواب القبور، يضعن كفًا من الحناء في منتصفها، مع السلام على ساكنيها، وتمتات أطلقنها عندما رأيّن ظل الست تحت شجرة الجميز الكبيرة. كانت تقف هناك ممسكة بمقصد. تقطع بعض الأوراق والأقمشة، وبإبرة لامعة وطويلة تصنع عدّة أحجية وتبرطم بكلمات مسموعة. تجاهلتها النساء وابتعدن عن الجبانة، لكن عينيها ظلتا تراقبهن بفرع، وظلت أناملها ترتعش، لا تعرف ما الذي أصابها، وما اليقن الذي يملأ فؤادها. لم تعرف البلدة عنها الكرامة من قبل، لكن فؤادها رأى جثمان عزة ممددًا على الخشبة، والنسوة تغسلن جسدها الجميل وتتحرسن على شبابها وأحلامها. لم يكن هذا فقط ما سكن عينيها، ففي ليلة أخرى، رأت بنات خالتها يتشاجرن على روائحها، الملابس، الحلي، حتى ملابس عزة الداخلية تشاجرن عليها.

بدأت الأرض تجذب الست إليها، توسوس لها بالحقائق، تسمع ما يدور في السماوات البعيدة، وترى من وراء الغيوم والسحب ما سيكون، غداً. الحقيقة ملك يمينها، بإذن الله، والبلدة تسمع همساتها، في الشوارع الترابية، وترى جلستها على الأرض مربعة أمام الصغار، تنادي عليهم لتقرأ الودع، والحصى، والتراب العالق في ملابسهم. الشيطان مسّها ووسوس في أذنها، لتظن في نفسها العرافة، ولم يكن لها مثل هذا الشأن. تجاهلها الكبار وقذفتها النساء في عرضها، أما الأطفال فقد سخرُوا منها، لكن هذا لم يمنهم عن التجربة. طفل هزيل مثل عود قصب، وقف أمامها طويلاً ونظر إلى عينيها، وكانت تراه من العين التي بدأ البياض يسكنها، أما الأخرى فكانت جاحظة، ومخيفة، ويدها ظلتا ترتعشان، هناك ما يخيفها لهذا الحد. أشارت للصغير أن يقترب ففعل. جلس أمامها وبدأ يستمع إليها متوجساً، ولمدة ظلت صامتة، لكن الصغير أنصت إلى أنفاسها اللاهثة، قبل أن تقول «لا أحد يصدق، لكنك ستفعل، عزة الآن في فراشها، ينفخ الله في جسدها بروح جديدة، سيكون ولدًا». لم يعرف الصغير ماذا يفعل، سوى الهروب بعيداً، ولما وصل إلى بيت أم عزة، قال لها «يا خالتي!»، وحكى ما دار، فبدأ عليها الغضب، وأرادت أن تذهب إلى الست لتفتح رأسها بحجر؛ لا تزال توسوس بالحكايات عن ابنتها، بعد مرور أشهر على الزواج، لا تزال تفتي في غيبها، وتتقول على الله بأشياء لم ينزلها.

التقطت الأم طرحتها، خرجت من البيت والشياطين تقفز أمامها،

ترشدها إلى مكان الست. لم تتوقع أن تتعرّض بزواج ابنتها ليخبرها «عزة حامل»، ذهباً إلى طيبة الوحدة، وأخبرتها بالبشارة.. هنا، أحست الأم بصوت يدعوها لتكمل الطريق، الشياطين حولها، واحد يتجسد في هيئة رجل مسن يمسك عكازاً ويشير لها ناحية الجبانة، حيث تجلس الست. أخبرت زوج ابنتها أنها ستأتي، بعد قليل، لزيارتها، لكنها الآن ستذهب إليها بخطى مرتبكة، وتجلس أمامها في خشوع. تخبرها الست أن ابنتها ستنجب ولداً، وأن طاقات النور ستحل على أهله جميعاً، وأنه سيتبوأ مكانة كبيرة بين الناس. تمر الأيام وتحقق نبوءات الست لأهل البلدة، وكلها خير وبركة، يسرع الكبير والصغير في ودّها. يبنون لها حجرة صغيرة جوار المقابر. أرسلوا لها الطعام، دعوها في الأفراح والمآتم، التمسوا منها البركة والفأل الحسن.

كل يوم يمرّ على عزة يزيدها حسناً، والعرافة قالت إن جمال وليدها سيتجلى عليها، يدور وجهها، ويطول شعرها، وكانت عزة تراه في منامها، شاباً جميلاً يحملها في ثياب العرس، ويضعها فوق هودج يحمله جمل بسنامين. وفي يوم صحت على طلق أسفل ظهرها، يشتد بسرعة بين الحين والآخر. جاءت أمها على الفور، وشممتها بيضة مقلية لتعرف إن كانت ستلد الآن، رغم أن الطيبة أجزمت بذلك. اشتد الطلق على عزة، وكانت طلقة الرأس هينة رغم ذلك. رأى الجميع نوراً يخرج من فرجها، طاقة قدر أطلقت الزغاريد على حسّها، وصلت إلى الست وقادتها إلى باب البيت. دخلت

إليهـن على عـجالة، ممسكة بسُرَّتَيْن، ابتسمت عزة لما رأتها، أغمضت عينيها للأبد. كانت ذراعًا الست مثل ميزان، في يدها اليمنى جلباب للوليد وفي الأخرى الكفن.

الغولة

سارت وسط أشجار الكافور والبوص المتناثرة على جسر الكعكة. تمسك بحبل يشنق حمارها، وفي يدها رضيع ملفوف كأوراق الكرنب. ظلها يتحسس البيوت والأخصاص، يتخطى النهر المردوم، يتموج مع الجسر رغم ظلمات الساقية وسخام التربة. يقفز على الأسقف، يمشي بخفة على تكعية العنب ونسيج اللوف الأخضر، يتخطى أعواد الزنزل الممتزج بالطين والقش، يرح الخوف أسفل قدميها، يقول فيستمعون، يغضب فيقدمون أقطاف العنب وأكواز اللوف والعسل والأطفال والرضع.

على سلخة من طين وحشيش تترجل إلى السلخانة وتترك نعليها والحمار بالخارج. على نهر من الدم تشمر يدي الرضيع وتغمسها في جدار السلخانة. خمسة أصابع محناة بالدم كفيلة لطرد الفتاء. تعود إلى حمارها فتجده يشتق كالجمل، وبجانبه مقطف مملوء باللفت والسبانخ. أهل القرى كرام، لكن

صغارهم عفاريت. تضع الرضيع في المقطف وتركب الحمار. تتخطى عمار القرية إلى شرق التربة، وظل الشجر يأكل وجهها. رأسها معصوب بتربعة سوداء، ثدياها يتدليان من جلبابها الأسود. الصدر والأكمام من القطيفة، بكورنيش واسع مليء بالكسرات. يقلدها الأطفال هناك، بعينها الواسعة السمراء ورمشها المنحول. جلدها منقرش بالبياض وفي ضبها ناب. تدور زينب في حلقة حول أمنا الغولة وابنتها المنكوشة، الغولة في قلب الدائرة، تنقي القمل، وعلى ظفر سبابتها يقطع كالمح. زينب خفيفة كالريشة، تصطفي أشجار البوص وتحتبى خلفها. هناك، بودة العفاريت كثيرة، وإذا بدّرت بنتاً ستهجم العفاريت عليها وتنهش جسدها طوال الليل. تغني البنات في سعادة ويعلو صوتهن فوق ماكينة الري: أمنا الغولة.. طقطقت الفولة!

أمنا الغولة تقترب والعين على سن السكين، في غمضة عين تهرب البنات وظلها العملاق يغطي كل شيء. عند تكعية العنب رأت زينب ظلها، بينما ذابت الأم المزيفة، مع الأخريات، في مياه التربة. الغولة على حمارها تأكل ورق الأشجار، وحقية الصفيح أمامها. رأتها زينب تقترب، التقطت شقفة حادة، ودعت الله أن تحرم رأسها، أو توقعها أسفل أقدام الحمار فتركبها. تفرط أسنانها، تطحن أنفها، وتخلع شعر رأسها. هدى ذات القمل، كانت برفقة زينب، تراقب المشهد، وترتعش.

اختبأت البنتان وراء نخلة، كتمتا أنفاسهما حتى تمر بسلام. هدى أخذت

الشقفة من يد زينب وهمست لها «هش!»، لكنها عندما رأت الغولة تدخل الشارع الضيق وتربط الحمار في عمود النور، لم تستطع أن تهشّ، قرفصت وبللت بنطاها بالماء والطين. الأعين تبحث عنها الآن، من منهما ستأخذ حموة الموس، وأي امرأة ستخرج الآن وتضع الطعام للحمار.. مرت دقائق وزينب تنتظر، وهدى تنتظر، والحمار ينتظر، إلى أن ظهرت خالة هدى بحزمة برسيم، ووضعتها أمام الحمار فارتفع النهيق.

هدى من وراء النخلة تسمع صراخ أمها، بين الحين والآخر، وترى خالتها تبحث عنها في كل مكان، وجدّتها تقف جوار الغولة وتغني على طبلها، تصفق فرحاً لقدم المولود، وتنادي عليها: «تعالِي يا هدى، أحزمك، وارقصي لنا» أخوها سيولد الآن، وهدى كانت تحب الرقص كثيراً، وزينب وجدت الفرصة أخيراً للهروب إلى أشجار البوص.

حفرت في الأرض وأخرجت كيس البودرة المدفون وراء البوص، ربما يأتي الدور عليها. سارت حافية على النخلة المصلوبة بين حافتي التربة، وكادت أن تعبرها لولا امرأة قابلتها. وقفت في منتصف النخلة، قدمها ثقيلتان، التفتت إلى الجهة الأخرى فوجدت أمها تنتظر، اختل توازنها فوقعت في التربة، اصطدمت بالقاع وملأ الماء البارد أنفها. روحها دودة رخوة وجسدها طين محروق. يد تعجنها ويد تحبز ملامحها، ويد تربط الأحبال. رأت أمنا الغولة في بيت هدى. الأم ملقاة على الأرض وتحتها رداء قديم مبطن بالبلاستيك، مفشوخة الساقين، ولفيف من النساء معها. تضغط

الغولة على بطنها، فتعض الأم على قميص هدى. تأمرها بكنم الأنفاس. يلمع العرق على جبينها، تطلق، تسمع بكاء ابنتها المغدورة، تأتيها طلقة وراء أخرى، تسمع نداءات ابنتها من جديد، يطش قرنبا في وجه الغولة فتمد يدها وتشد رأس الوليد، عندما يرى وجهها يصرخ ملسوعاً. تخرج الموس من الحقيية وتقطع حبل سرتة ثم تربطه بفيتيل من الصوف. تنظر الأم إلى رضيعها بنصف عين وتقول إنه يشبه هدى. تشير الجدة إلى الغولة بقرف، فتمسح الدم العالق على وجهها وتمص إصبعها وشفيتها ثم تقرب الوليد إليها، تظن زينب إنها ستأكله. تصرخ، تنظر الغولة إليها، فترتعب. تمسكها إحدى النساء من الخلف وتقيدها، تحملها إلى أمنا الغولة. زينب بكت حتى السعال عندما رأتها عن قرب، نابها أزرق، شعر أنفها طويل مبتل. شدت إحدى النساء بنطال زينب، وأمسكت أخريات بيديها، فتحت المسكينة ساقيها. اقتربت الغولة بموسها وحشرت قميص هدى في فمها.

بعد قليل، شعرت بهاء الترفة يخرج من فمها مع ديدان وأسماك صغيرة، وسمعت بكاء أمها وصوت غليظ يخبرها أنها حية، وأن ماء الترفة، فقط، تسلل إلى رأسها وأفسدها. شعرت بوحى يناديها «تعالى إلى الدوّار». تسللت خارج البيت. مشت على الجسر بساقين متعبتين، ونصف قمر يؤنسها. بومة على الأشجار تراقبها وخفّاش يدها على الطريق. دارت مع الجسر، حافية القدمين، على سلخة من تراب وحشيش، دفعت باب الدوّار ووجدت المكان ممتلئاً بالحجاج، بنات كثيرات تعرف أسماءهن، يدُرْنَ مع الحفافيش

حول أمنا الغولة، كلهن يشبهونها، بشعرها المنكوش ونابها الأزرق. كادت زينب أن تصرخ، وبدلاً من ذلك سمعت طائراً يصرخ بصوت عال في صدرها بالملك لك لك لك لك، مع أصوات الترانيم والصلوات من حولها. ورأت جلداً منقرشاً بالبياض يكسوها وناباً وحشياً ينبت في فمها. ومشت بخطى بطيئة حتى وقفت أمام أمها الغولة، وألقت عليها السلام.

الإبريق

اليوم هو سبت البشارة؛ فوق أسطح البيوت الطينية ملاءات بيضاء، تنشرها النساء فوق واجهات البيوت، وعليها بقعة كبيرة، فعلها الرجال بالليل. كل امرأة تتفاخر برجلها تحت عين الشمس، وأمام أعين الجيران. تدق الأهوان سبع دقائق بالعدد. ثُملاً الأباريق بماء الورد، وتوضع على صينية نحاسية في المنادر وقاعات النوم. تبخر البيوت باللبان الذكر، استعداداً لمجيء "أم قويق"، ستعدل الميزان. كل النساء في انتظارها.

عندما تتجلى، يحرم الجدل على الرجال وتتكلم النساء، يرتدين الجلابيب والعباءات الصوفية، ولا يرتدين حمالات الصدر. يرأسن مجالس الرقص والغناء، يطبخن الكوارع ويخبزن الفطير المشلتت. لا تضاجع امرأة رجلاً. لا يقربها ولا يشم ريحها. يشرب الرجال الماء الوفير، من الإبريق، كل ليلة، ولسوء حظ نجية لم تجد بشارتها؛ صحت من النوم تتحسس السرير

الجاف، وتنخس رجلها حربي بقوة. عرف أن هناك مصيبة حطّت على رأسه، أدركها مباشرة عندما قفز على الأرض ونظر إلى سيره، وبدأ يرجوها أن تستره، وألا تنشر الملاءة نظيفة، ونجّية امرأة مؤمنة، لا تحالف الطقوس ولا تتعدي على حرمتها. حاول أن يفعلها، اقترح على نجية أن تفعلها، لكنها انتزعت الملاءة، ونشرتها على سطوح البيت. خبأتها وراء ملاءة أبيه، ظنّت أن الأعين ستغفلها، وأن رجلها قد ينجو. لم يستطع معارضتها، فالأسبوع أسبوعها، أما بقية الأيام فيملكها ويمسكها من لجامها. خرج غضبان، مشى في الشوارع لا يعرف إلى أين، والريح شديدة، تحمل أسرار الناس معها. على لسان جارتته انتشر خبره، صار لبانة تلوّكها أفواه النساء. أعين ترصده، أعين واسعة، تعدّ خطواته. أنفاسها في الهواء، أم قويق. الكل يعرفها، ولا يستطيع أن ينكرها أحد. في الهواء رائحة تشبه الكمون، تفوح من الأشجار والنخيل، ومن أبراج الحمام والزرائب، كل شيء في القرية يعلن عن وجودها، حتى السماء أمطرت ورعدت، على رأس حربي، فقرر العودة إلى البيت مختبئاً أسفل سعفة نخل، آمناً من المطر ومذعوراً من الطقس: سعف النخيل.. في أيدي الجميع، الصغار يتسلقون النخل، وكل فتاة تنتظر غصنها. موكب العجائز اتجه إلى شجرة الكافور العظيمة، جلست النساء حولها متشابكة الأيدي، ومكشوفة الرأس. أغمضن أعينهن، وبدأن في الغناء والتمايل حولها، صوت جميل يعلو فوق صوتهن، لأكبر امرأة في القرية، تجلس أمام الشجرة، تتمايل يميناً ويساراً، كطائر يعرف

أسرار السماء، تطلق التساييح والصلوات بصوتها الحلو، حتى أظلمت الشمس، وظهر القمر بدرًا فوق شجرة الكافور. لمس نوره أعين النساء حولها، فأطلقن الزغاريد، ورفعن سعف النخيل الذي امتص الضوء، وأنار الطريق إلى المنذرة الكبيرة. النساء والصبايا انتظرن الزغاريد، وقفن على أسطح البيوت حتى رأين السعاف المضئية، ودقت الأهوان مع الطبول، وسبعة من النساء رقصن إلى المنذرة.

الأصوات هزت رأس حربي، صوتٌ دافئٌ أمره بالمشول أمام شجرة الكافور العظيمة. لم يستطع تجاهل الأمر، وجد نفسه يشرب من الإبريق ثم يخرج من البيت، يتخبط في الحوائط ويتعثر في جرائد النخيل الملقاة في الشوارع، حتى رأى سعفة مضئية، تتبعها نحو الشجرة، كاد يلمسها لولا يد العم التي امتدت، نهَّره قائلاً "عليك أن تهرب، أيام وتنتهي الخرافة". كشك مهجور في آخر القرية، هناك أخذ العم، وهناك سيعد حربي الأيام ويهرب من الظلال، وظلها على الحائط، أم قويق تريده، تنتظره، غيط القصب يصدر همسات، يتلفت حربي في كل مرة يحاول فيها التبول أمام الحائط المتهدم. يقف لمدة طويلة، ويشعر بسن موس حاد، فتنزّل قطرة أو قطرتان بالكاد. يفترش على الدكة في انتظار الشمس، لكنها تظل على غيابها. ليلة بعد ليلة ولا أثر للضوء. يأتي العم برفقة بعض الرجال، كان عددهم اثني عشر رجلًا، معهم العريس الجديد، سيدخل على ابنة العم في نهاية الأسبوع، ولا بد من دم ليطرد الشر بعيدًا.

جلسوا بالقرب من الكوخ والجوزة في يدهم، تنتقل من رجل إلى آخر. يصطفون على جذع نخلة ملقّي بالعرض، وحربي في منتصفهم. يأخذ الجوزة ويشد الدخان. لا يسعل، لا يبدي فزعاً، لكنهم يعلمون ما في صدره. مسكين لا يقدر على التبول، مريض، وليس على المريض حرج في وقت غير الآن. يقول أحدهم مهوئاً "لا تصدق حكاية أم قويق، إنها خرافة، ندع نساءنا تفرح وترقص، فينسين وجودنا قليلاً". رغم ذلك يفتخر كل رجل بالبقة الكبيرة التي تركها على الملاءة البيضاء، يقول العم "ابنتي، رفعت ملاءتي دون أن تتقزز، علقتهائاً عالياً"، حلقت الحمامات فوق الملاءة، في السماء، وسبحت باسم الله، لم تسبح باسم أم قويق. قال رجل "لأنها كذبة"، سنوات قديمة والقرية تداوم على هذا الفعل، لم يشهد أحدٌ تجليها، سكن الكفر قلوبهم، لكن ألسنتهم ظلت على خرسها، لم يجرؤ رجل على الصراخ. حربي وحده من صاح "إذا كانت تريدني فلتأت إليّ، تعالي وخلصيني من آلامي". بلورات صلبة صغيرة في مثانة الرجل، بلورات من ماس، أو ذهب، أو ملح، تريدها لنفسها، أم قويق، العم أخذ الجوزة وقال "لن تأتي إليك، لا تفزع، سنظل معك الليلة إلى نهايتها"، لكن الرجال، مع انطفاء الحجر، شعروا برغبة في النعاس، وأرادوا أن يهربوا بعيداً عن ضوء القمر، الماسي. وحده العريس ظل مع حربي، وقال "لا تخف، سأقودك إلى كوخك ولن تأتي إليك"، لا تخرج أم قويق إلى رجلين، تخاف الأرقام الزوجية، وتحب ما هو مفرد. لا خوف عليهما الآن، فالله معها. أسفل ضوء القمر، في منتصف الطريق، رغم أنفاسها الساخنة التي

تفوح من كل مكان، ولا مكان أو زمان يتسع لها. قال العريس "سأنتظر في عرسي، سنطلق النيران ونرقص بالعصيان معاً"، قبله تركها العريس على خد حربي، وقال "سأباركك، وأنتظر لتباركني"، لم يطل الطريق بعد هذه القبلة، وصل كل منهما إلى مراده.

عاد العريس وحده من الطريق، يدندن لحناً قديماً. لم يشهد أحدٌ حربي. لم تنتظره نجية في العرس، رقصت مع النساء، والأعيرة النارية في الهواء، الرجال يضربون بعضهم بالعصيان، والعم يجلس فخوراً بما فعل، عذراء هي الابنة، والليلة ليلتها. ملاءات بيضاء نشرتها النساء فوق البيوت، واليوم يرتفع المنديل بالبقعة الحمراء.

الْوَلِيُّ

المقام غرفة على المحارة، تتسع لضريح العارف بالله سيدي عامر، وسرير حديدي ينام عليه الشيخ النوبي. مشربية على رأس الباب تُدخل الهواء لهما، ونافذة من الحديد المفرغ تطل الشمس منها كل صباح، ويسترق الصغار منها النظر، ليطمئنَّ الناس أن الشيخ وعباءته في الداخل. يأتي الناس كل جمعة بعد صلاتهم في المسجد المجاور، يحبُّون على يد الشيخ ويقرأون الفاتحة لسيدي عامر، ويدعون لهما بدوام القرب. الشيخ النوبي يحب الوصل، لكنه - الآن - لا بد أن يزيل العباءة من فوق الضريح، يلتقط عكَّازَه المتشعبَ، ويخرج من الغرفة متجهاً إلى البلدة، وهو أمر لو تعلمون عظيم.

الريح في الطريق نقلت الخبر في غمضة عين. تسارع الناس إلى بيوتهم، وأغلقوها وراءهم جيداً. العين الوحيدة التي يسمح لها بالرؤية هي عين رجل البيت، يقف على السطح، ويراقب من بعيد الشيخ النوبي، وخطى

عكازه ذي الثلاثة أصابع. أوراق الأشجار الصفراء تسقط على شال الشيخ، وتكسو الأرض، أصوات تهمس من التراب، ليست صرخات، ولا صلوات، بل مزامير، وطبول احتفال تدق، مع قلوب خلف الأبواب. حتى الآن، لن يشير بعكازه إلى باب بعينه، لا يزال يعفر الطريق بمشية بطيئة، تلهث وراءها أنفاس الناس. يعرف الشيخ الأعين التي تترقب عكازه، يستطيع أن يشفّ الأبواب والنوافذ بعينه، لكنه لا يدخل - أبداً - البيوت دون استئذان، للبيوت حرمة لا يتعدّها أولياء الله الصالحين، وهو ضيف ثقيل رغم ذلك، لا يكتفي برشفة شاي كبقية الناس عندما يزورون بعضهم البعض، لكنه يرتشف كوب الشاي لآخره، لآخر نفس.

توقّف الشيخ النوبي أخيراً أمام عتبة "الشحات"، رجل يفلح الأرض، ولديه ثلاثة ذكور وامرأة، وبهيّمتان. كلهم يختبئون في آخر البيت، والشحات مصلوب على السطح، يفكر في مصيره. ماذا لو اختاره الشيخ للضيافة، ماذا لو خلع العباءة ونفضها أمام عتبته. سيجلس أمامها ولن يرحل. يا لهذا الرجل، لا يدري لماذا يحبه الناس هكذا؛ لا ينكر أبداً كراماته التي تتجلى في كل بيوت البلدة، كان يفعل مثلما يفعلون، يصلي في جامع سيدي عامر، رغم المسافة، يحبّ على يده كل جمعة، ترسل امرأته الشاي والسكر، والخبز المملّن، وكنكة من اللبن الدافئ كل ليلة. الشحات كريم، لا يعترض على أفعال امرأته، كل يوم تحكي له كرامات الشيخ، وهو - بأذن من طين - يستمع لحكاياتها. بالأمس دار الحديث حول حريق سيندلع من البر الشرقي، تمسك

النار الغاضبة في أشجار الموز، تصل إلى البيت الفلاني، بعدها البيت العلّاني، ينتهي الشيخ من الحديث فيسرع الناس بالجرادل والمقطاف، يصلون ويرون ألسنة النار تشتاط، تأكل جدار البيت الأول وتصل إلى البيت الثاني. أطمع الناس النيران وسقوها حتى اختفت. استطاعوا انقاذ البيت والبهائم، وعدّوها من كرامات الشيخ النوبي التي لا تنتهي، منذ جاء إلى البلدة، منذ سبعين عامًا، قبل أن يولد الشحات، وقبل أن يولد أبوه أو جده. هو لا يقدر على ضيافته اليوم، ولا بعد سنة من الآن، لن يكمل الأربعين حتى يكفّف امرأته فوق طاقتها، ماذا ستفعل المسكينة دونه؟ سؤال يأكل رأسه، والشيخ ينفذ عباة أمام البيت، وينادي بصوت أجش أن يفتح الباب؛ يفتح الله أبواب الجنة في وجهه.

الشحات لا يريد أن يفتح الله أبواب الجنة، أو النار، لا يريد أن يفتح الباب لهذا الشيخ النوبي، لا يريد لامرأته أن تشق صدرها حزنا عليه، ولا لصبيانها أن يروه مُحشَبًا، لا يستطيع أن يحمل أحدهم على ظهره، يريد أن يلعب الآن معهم "ثبت صنم"، وتتسلل امرأته بخفة، وتضربه بكفها الطفولي. ماذا يدور في عقلها الآن؟ نزل الشحات من السطح، وتوجّه إلى غرفتهم، وجد الصبية يحتضنون أمهم في خوف. تساءلت إن كان وقف على عبتهم، أخبرها أنه فعل. أبعدت الصبيان من حضنها، تساءلت إن كان خلع العباة أم لا، أخبرها أنه فعل. تسمّرت كثيرًا، دعت الله في كل صلاة، ومع كل كوب لبن ترسله للرجل، ألا يفعل، وأن يجعل يومها قبل

يوم زوجها. كانت خائفة، احتضنته، "ما تفتحش الباب يا حبة عيني". المرة الأولى التي يبكي فيها الشحات أمامها، احتضنوه وتمسكوا بجلبابه عندما توجه إلى الباب، لم يقدر على جرّهم؛ وقّع، والشيخ النوبي يستمع لما يحدث، يحثه على وداعهم، والخروج إليه بجلباب أبيض معطر بالمسك، أمام أهل البلدة الذين تجمّعوا بالقرب من بيته، يراقبون في حزن، ويحثون نساءهم على عمل صواني الطعام التي تليق بليلة هذا الشحات الطيب.

الباب ظل مغلقاً لثلاث ليال، والشحات، في الداخل، يأكل الفتات مع أولاده، ويشرب من طرمبة دقّها حديثاً في حوش البيت. الشيخ لم يتزحزح من مكانه، تأتي الصبايا بصواني الطعام، عليها الأرز والخضار، وهُبر من لحم محمّر. يراقب أهل البلدة الشيخ ويتمنّون أن يملّ جلسته، ويترك الشحات يرثي أولاده. يسألون عن أسباب اختياره؛ رجل غلبان، وله واجب عند كل نفر منهم. ربما لأن الدنيا لا تترك إلا الفاسد. يوم بعد يوم تأتي الوفود إلى الشيخ النوبي، ويعقدون المجالس، ويعرضون أعمال الخير عليه، اقترحوا أن يشيدوا مقاماً جديداً يحمل قبة خضراء لسيدي عامر، وأن يرفعوا أعمدة الجامع، يحفروا الأرض، ويوصلوا الماء إلى الميضة. الشيخ يعرف أن نيتهم ليست خالصة لله، رغم ذلك وافقهم على الأمر. بعد عشرين يوماً، وعلى الفور، شرعوا في أعمال الهدم والبناء والحفر، حتى النساء شاركن الرجال في حمل قصعات المونة، والأطفال في حمل القوالب. والشحات يجلس مع أهله، يعرف ما يدور بالخارج، يمسك كسرة خبز. يغمسها في قعر طبق

مدهون بالمش السائل، ويعطيها لصغيره. يسأل عن زوجته، لا يعلم الأبناء أين ذهبت. للحظة فكَرَّ أنها خرجت تستسمح الشيخ حتى يرحل، أو تعرض عليه أن يأخذ حياتها، فتصير خادمة في مقام سيدي عامر. ارتعش الشحات وقام من جلسته، استند على ابنه البكري، والصغير يلعب في ذقنه النابتة، لم يجدوها في المطبخ، ولا على السطح، وجدوها في شونة البهائم، تجلس في مربطهم، تمسك طبقا بلاستيكيًا وتأكل المكمورة.

أربعة أيام مرَّت، تم تجديد الجامع، والميضة. طلب الناس من الشيخ النوبي مفتاح غرفة المقام. كانوا يعرفون أنه سيرفض طلبهم، لكن ربما يأتي بنفسه ويفتحها، ربما ينشغل مع ضريح سيدي عامر، وينسى أمر الشحات. وهو بالفعل ما حدث، مشي الشيخ معهم، ووصل إلى المقام، ولم يضع العباءة على الضريح. وفي الوقت نفسه تسلل مجموعة من الرجال إلى بيت الشحات، يحملون البطاطس والخبز، وأنبوبة من الغاز الطبيعي، وبعض الأطعمة الأخرى. رمى رجل منهم طوبة على سطوح البيت، والبيت مقطوع، ليس جواره بيت ينطون إلى بيت الشحات من خلاله. ظهر إليهم بوجه شاحب، فأعطوه إشارة الأمان، نظر إلى مقعد الشيخ ولم يجده في مكانه، هروا إلى باب البيت في اللحظة التي كان الرجال يحملون الضريح ويخرجون من الغرفة، رآهم الشيخ من حجاب الغيب، يتسللون إلى بيت الشحات ويعطونه الطعام، رآه يُجَرُّ شِكَارَةً من البطاطس، وتمسك امرأته بطة سمينية. وفي لمح البصر وجدوه أمامهم؛ مشى على ماء الترعة، ومن

معه الله يمشي على الماء ويمشي على النار. أغلق الشحات الباب مفزوعاً، وهرول -مع صغاره- إلى الغرفة البعيدة، وارتفع صوت الشيخ مهدداً "قسماً عظماً أخبط على بيوتكم واحد واحد". لأول مرة يرونه غضباناً هكذا، كان النور يطل من عينيه دائماً، والابتسامة البشوشة على وجهه، خاف الناس من فعلتهم، التمسوا منه العفو والسماح ولم يحاولوا إطعام الشحات وأولاده مرة أخرى، حتى مرت أربعين ليلة على انتظار الشيخ، أمام عتبة الشحات.

في ذلك اليوم كانت الشمس عفية، رغم الخريف. وبدا التعب على الشيخ النوبي. رآه الناس يتنفس بصعوبة، يقف مستنداً على عكازه، ينفض التراب من عباءته، ويتعد عن بيت الشحات، بخطوات بطيئة، والغضب يسكن صدره. لم يتخيل أن يرفض الشحات ضيافته، يتركه على باب البيت أربعين يوماً، هذه كبيرة. لم تحدث منذ حطّ على البلدة، منذ سبعين عاماً، ثمانين عاماً، تسعين عاماً. سنوات لا يذكرها، مضت دون إهانة. بصق الشيخ على الأرض، وبرطم بكلمة ما. سمعه الناس جيداً. قال "بخيل" وبصق على الأرض، وعاد إلى المقام، وتساقطت أوراق الشجر. ارتفع الصراخ والعيول من بيت الشحات، واجتمع الناس في وقار، ليشربوا الشاي.

المؤلفة في سطور

أميرة بدوي، قاصة ومترجمة مصرية، من مواليد محافظة المنوفية، 1991. تخرجت من كلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، جامعة القاهرة. فازت بمنحة آفاق للكتابة الإبداعية عن مجموعتها القصصية ست زوايا للصلاة. وفازت بجائزة مركز طلعت حرب الثقافي دورة 2018، وفازت في جائزة مشروع القصة العربية دورة 2017، وترُجمت قصتها القصيرة "شق الجبانة" إلى اللغة الإسبانية والإنجليزية من قبل المترجمة الإسبانية، Rita Tapia Arigur. كتب عنها الناقد الإسباني Francisco Martinez Bouzas دراسة بعنوان "السرد النسائي المعاصر في مصر".

تناولت الباحثة د. مي طعيمة، المدرس المساعد بقسم المسرح بكلية التربية النوعية جامعة المنوفية، قصتها القصيرة: فوق النور، في رسالة دكتوراه بعنوان "فاعلية برنامج تدريبي قام على المسرح في تنمية المهارات الاجتماعية وتحسين التوافق النفسي لدى الأطفال ذوي طيف التوحد".

ترجمات تحت الطبع:

- الترجمة العربية لرواية تائهة في الحي الإسباني - هيدي غودريتش. عن منشورات إيبيدي.
- الترجمة العربية لرواية غرفة يعقوب - فيرجينيا وولف - عن منشورات إيبيدي.

للتواصل مع المؤلفة:

ameraabadawy@gmail.com

